دراسة

دراسات ميدانيّة في أثر الصراع في سوريا على المجتمع

سوريا: عصر أمراء الحرب وعودة الحمايات والوصايات

(1)

الميليشيا الشيعيّة

فريق عمل



مركز دراسات الجمهوريّة الديمقراطيّة

www.drsc-sy.org

تموز\يوليو - 2015

دراسات ميدانيّة في أثر الصراع في سوريا على المجتمع

سوريا: عصر أمراء الحرب وعودة الحمايات والوصايات

(1)

الميليشيا الشيعيّة

فريق العمل

يوسف فخر الدين –راتب شعبو - غريب ميرزا

مساهمة

همام الخطيب – طارق أحمد

أدار الفريق

يوسف فخر الدين

استشارة:

الأستاذ أنور البني، مدير المركز السوريّ للدراسات والأبحاث القانونيّة.

أ.د يوسف سلامة، المدير العلميّ لمركز دراسات الجمهوريّة الديمقراطيّة

الفهرس

إطار الدراسة المنهجيّ

أولاً: تعريف بالدراسة

تقوم هذه الدراسة على جمع وتحليل ومقارنة المعطيات التي تتعلّق بوجود ونشاط الميليشيا الشيعيّة في سوريا؛ حيث نقف على حالة هذه الميليشيا، التي بات لها حضورٌ ذو تأثيرٍ كبيرٍ في الشأن السوريّ. لا تقف هذا الدراسة فقط على الدور العسكريِّ لهذه الميليشيا، وإنما تقارب أيضاً، ضمن حدود ما أتيح لنا في ظرف الحرب، أثرها على المجتمع السوري، ونبحث في علاقة هذه الميليشيا بالإستراتيجية الإيرانية، وكيف انعكس وجودها، وسلوكها، على المجتمع السوريِّ، والبحث فيما إذا كانت ستسهم في خلق آليّاتِ عنفٍ ذات ديمومة.

ثانياً: أهمية الدراسة

تنبع أهميّة الدراسة من توثيقها جانباً من "عملية الصراع السوري الجاري"، واكتشاف كيف ولماذا تجري، وما هي أبعادها. بما يساعد على استشراف المستقبل، ورفد الدراسات اللاحقة بمادةٍ بحثيّة.

وبالتخصيص يكتسب البحث أهميّته من أنه يحاول أن يقدّم رؤيةً لدور "ولاية الفقيه" في الصراع الجاري، وكيف تتجسد عملياً من خلال الحرب. بحيث يضع البحث معلوماتٍ تحليليّةً واستنتاجاتٍ بين يدي القارئ المهتمّ وصانع القرار والمنظّمات المختلفة.

كما يكتسب البحث أهميّةً لكونه يضيء على التفاصيل التي غالباً ما يتمُّ إهمالها في الخطاب العامِّ، في حين أنها عناصرُ فاعلةٌ يمكن الاستفادة منها في فهم "الحالة"، وفي بناء مقاربة لعلاقات المكوّنات السوريّة المختلفة.

ثالثاً: إطار الدراسة

ما إن بدأت عملية العنف في سوريا، منذ مجابهة المظاهرات بالرصاص والقمع مروراً بالتعذيب في أقبية السجون، ومن ثَمَّ التحوّل المسلّح في سياق الثورة، حتى دخلت سوريا تباعاً في الحرب الأهليّة لينكشفَ الواقع السوريّ أمام التداخلات الخارجيّة[1].

1- يوسف فخر الدين، في تعقيدات الصراع السوري، مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية، http://goo.gl/RXa8EV

على أرض الصراع كانت القوى المتطرّفة تتمدّد، مستفيدةً من عواملَ عدّةٍ. فامتدَّت ميليشيا شيعيّة، يتشكّل عناصرها من لفيفٍ من العرب والسوريّين والأجانب. وبالمقابل امتدَّ تنظيمٌ إسلاميٌّ "سنّيٌّ"، هو "تنظيم الدولة الإسلامية في العراق"[2]، يبتغي إقامة الخلافة والدولة الإسلاميّة، وعناصره خليطٌ من عربٍ وسوريّين وأجانب. وكما تدمّر "داعش" مؤسسات الدولة السورية لبناء دولة حلمها، فإن "الميليشيا الشيعيّة" تسلك سلوكاً سياديّاً وصل إلى إعدام ضباطٍ وجنودٍ في الجيش السوري[3]، وهو ما يؤدي إلى استكمال الإجهاز على شرعية الدولة وهيبتها حتى في عين موالاتها. وما بين هذين التمدّدين، يوجد قوى إسلاميّة متنوّعة الولاءات، ومتعدّدة الاتجاهات، عدا عن قوات الأسد.

على المستوى الإقليميّ نعيش فترةَ اضطرابٍ كبيرٍ ناتجٍ عن توقيت الموجة الشعبيّة المطالبة بالديمقراطيّة والمشاركة السياسيّة مع إعادة التموضع الأمريكي في المنطقة[4]. ما أدى إلى مسارعة القوى الإقليميّة لسدِّ فراغٍ مزدوجٍ، ذاك الناتج عن الفوضى التي أودى لها التصادم بين الحراك الشعبيّ مع آلة القمع السلطويّة للأنظمة المثار عليها، وذاك الناتج عن الانكفاء النسبيّ الأمريكيّ.

إلا أن التدخل الإيراني في المنطقة، عبر الميليشيا الشيعيّة، كان قد بدأ مسبقاً في العراق ولبنان، وكان يُعَدُّ له في اليمن منذ فترةٍ طويلةٍ نسبياً (وهو ما ظهر بوضوحٍ ما إن تحرك الحوثيّون في اليمن)؛ وبدأ في سوريا مع انطلاق الثورة في محاولةٍ منها للاستفادة من عجز النظام السوري عن إنهاء الثورة السورية، وسعياً منها لتوسيع نفوذها بضمِّ سوريا إليه، وبغية تحويل تحالفها (الذي كان قد صار تحالفاً لصيقاً مع وراثة بشار الأسد للحكم، نتيجة تدهور علاقة الأخير بالسعودية ومصر وافتقاده دعم الاتحاد السوفييتي) إلى وصاية.

إلا أننا، وعلى الرغم من أن الإطار العامَّ للصراع دوليٌّ إقليميّ، وأن الحدود انهارت فعليّاً بين العراق وسوريا، وعلى الرغم من ارتباط التطوّرات في سوريا بالصراع الإقليميّ مع إيران في عدّة

2- أعلن التنظيم في نيسان 2013 عن "الدولة الإسلامية في العراق والشام"، ثم عاد في تموز 2014 وأعلن عن قيام "الدولة الإسلامية". وتم إطلاق تسمية "داعش" عليه، وهي التسمية الشائعة التي سنقوم باعتمادها في دراستنا.

3- جريدة الشرق، إيران تعدم ضباط الأسد، http://www.alsharq.net.sa/2015/02/16/1297204

4- يوسف فخر الدين، سوريا وإيران في ظل إعادة التموضع الأمريكي، تقدير موقف إصدار مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية، http://drsc-sy.org/?p=38

بلدان، حصرنا البحث بالصراع ضمن الجغرافية السورية فقط كون البحث جزءاً من عمليّة بحثٍ أوسع، على مواضيعَ متعدّدةٍ، يقوم بها مركز دراسات الجمهوريّة الديمقراطيّة.

رابعاً: أهداف الدراسة

يهدف البحث إلى:

1- تقديم منظّم ومصنّف للمعلومات التي تتعلّق بالميليشيا الشيعيّة، بما يشبه حالة توثيق.
2- تحليل بنية الميليشيا الشيعيّة.
3- تحليل الإستراتيجية الإيرانية بخصوص سوريا، والعلاقات التي تحاول نسجها مع المكونات السورية لخدمة هذه الإستراتيجية.
4- محاولة التنبؤ بما ستؤول إليه هذه العلاقات مستقبلاً.

خامساً: إشكاليّة الدراسة

في سياق تلاقي الحركة الشعبيّة المطالبة بالديمقراطيّة والمشاركة السياسيّة، مع القمع السلطويّ الذي فعل كلَّ ما يستطيع لحرف الصراع من ثورةٍ سلميّةٍ إلى حربٍ أهليّة، وفي ظلِّ إعادة التموضع الأمريكي، تولّدت اضطراباتٌ حاولت القوى الإقليميّة الاستفادة منها من جانب والتدخّل لمواجهة تبعاتها من جانبٍ آخر. ممّا زاد من تعقيد الوضع السوريّ، وكشف الداخل السوريّ للتداخلات الخارجيّة[5]. وكان أن تدخلت إيران بشكلٍ مباشرٍ في سوريا، مرّةً لحماية النظام السوريّ، وأخرى لاحتوائه والوصاية عليه وتثبيت نفوذها في سوريا. وكانت الميليشياتُ الشيعيّة المستقدمة أساساً من خارج سوريا، أهمَّ أدواتها في هذا التدخّل. وجدت هذه الميليشيا الشيعية شرعية، رغم طبيعتها المذهبيّة الصريحة ورغم أن نسبة الشيعة السوريين لا تتجاوز 5% من السكان، عند جمهور المؤيدين الذين رأوا فيها سنداً للنظام ضدَّ ميليشيات إسلاميّة سنية جهادية. وقد شكّلت هذه الميليشيا، بأعدادها وخبرتها القتالية ولاسيما حزب الله اللبناني، ضغطاً كبيراً على قوات المعارضة المسلحة عدّل ميزان القوة حتى فترة قريبة.

وقد خلق وجود هذه الميليشيا إشكاليّةً مركّبةً في الواقع السوريّ، فهي، بصفتها الطائفيّة الصريحة بدءاً من أسماء فصائلها إلى وحدانية العنصر الشيعي فيها، دفعت الوضع السوريّ إلى تكريس

5- المصدر السابق

الاستقطاب الطائفي، أولاً من حيث اعتمادها حساسياتٍ طائفيةً لحشد وتحفيز عناصرها، وثانياً من حيث توليد ردٍّ فعلٍ طائفيٍّ مقابل، وذلك وفق آلية اشتغال الميليشيا الجهاديّة السنيّة نفسها التي تواجه النظام السوري. وهذا سوف يترك آثاراً مديدةً على المجتمع السوري، في ظلّ غياب قوى وطنيّةٍ مدنيّةٍ ديمقراطيّة مؤثرة. الأمر الذي يحمل معه تعقيداتٍ وتغيّرات على المجتمع السوري بأطيافه المختلفة، هو ما نحاول بحثه.

سادساً: منهجية الدراسة

اعتمد الفريق في الدراسة على منهج التوثيق والتحقّق والمقارنة في التعامل مع مصادره، وقام بتحليلها وعرضها اعتماداً على المنهج الوصفيّ التحليليّ.

سابعاً: مصادر الدراسة

1. التقارير الصحفيّة التي وردت في وسائلَ إعلاميّةٍ عدّة، ، والتي قارنها الفريق البحثيّ بشهاداتٍ موثوقةٍ للخلوص إلى أكبر قدرٍ ممكنٍ من الدقة.

2. دراسات وتقارير أعدّتها مراكز أبحاث ومنظمات تُعنى بحقوق الإنسان، والتي تُعتبر ذات موثوقيّةٍ، من خلال الاعتماد على أبحاثها كمصدرٍ للكثير من المنظّمات الدوليّة والرسميّة والإعلاميّة، مثل المرصد السوري لحقوق الإنسان، والشبكة السوريّة لحقوق الإنسان.

3. شهادات حصلنا عليها من قِبل ناشطين ميدانيّين وناشطي تنسيقيّات في مناطق تواجد هذه الميليشيات ، أو كانوا كذلك حتى وقتٍ قريبٍ، عن طريق إجراء مقابلاتٍ شفويّة مفتوحة معهم.

ثامناً: أسئلة الدراسة

السؤال الرئيسي في البحث: ما هي طبيعة العلاقة (الحالية وأفقها المستقبلي) بين الميليشيات الشيعيّة والجمهورية الإسلاميّة الإيرانيّة، وبينها وبين المكوّنات السوريّة (من قوى النظام والمكوّنات الشعبيّة السوريّة، والميليشيات والقوى التي برزت في الصراع). وهو ما تفرّع عنه أسئلة عن طبيعة هذه الميليشيا؛ أي عن ماهيتها وهويتها، وعن أنشطتها (العسكريّة، والسياسية والاجتماعيّة، والاقتصاديّة) وارتباطها بالإستراتيجية الإيرانية.

وهل لهذه الميليشيا أثرٌ دائمٌ في المجتمع السوري؟ وفي حال الإجابة بالإيجاب، ما هي سيناريوهات العلاقة بينها وبين الفئات التي تجد نفسها متضررةً من سقوط الأسد؟ لنخلص إلى السؤال عما يمكن فعله من قبل الديمقراطيين لبناء وطنيّةٍ ديمقراطيّةٍ جامعةٍ تستطيع إعادة بناء سوريا على أسس الديموقراطية والمواطنة.

وطوال البحث يبقى السؤال البحثيّ الأكثر إثارةً للقلق هو: كيف يمكن فرز الحقيقيّ من الوهميّ في ما يقوله الفاعلون السياسيّون والمتأثرون بأيديولوجيتهم وفعلهم؟

تاسعاً: محدّدات الدراسة

في عدة مواقع من الدراسة، كان يفضل إجراء دراسةٍ بالطرق الكمية، مثل الاستبيانات، للوصول إلى نتائج أكثر دقة يمكن الركون إليها بثقةٍ أكبر؛ مثل دراسة موقف عموم العلويين من الميليشيا الشيعية. لم نتمكن من ذلك في ظلّ نظام الأسد (ذلك أن أي محاولةٍ كهذه قد تودي بحياة صاحبها، حتى لو أجرينا الاستبيان شفوياً)، لهذا اعتمدنا على شهادات أشخاص لهم اطّلاعٌ داخل المجتمع، بفضل عملهم الإعلاميّ أو السياسيّ ضمن بيئاتهم الاجتماعيّة.

عاشراً: أدوات الدراسة

اعتمدت الدراسة على: المقابلة المفتوحة، ودراسة التقارير والأبحاث والأخبار، وجلسات التفكير الجماعية لفريق العمل، بحيث يمكن القول إنه نتاجُ تفكيرٍ وتحليلٍ جماعيين.

الفصل الأول: التدخل الإيراني وظهور الميليشيا الشيعية في سوريا[6]



فتوى للمرجع الديني "كاظم الحائري" تدعو للالتحاق بولاية الفقيه والقتال مع حزب الله في سوريا

توطئة

تمتدُّ العلاقات السورية الإيرانية إلى مراحلَ موغلةٍ في التاريخ[7]، ما يهمّنا في بحثنا هو علاقتهما الحالية، وهو ما يصعب بحثه دون إطلالةٍ سريعةٍ على التطوّر الذي طرأ مع وراثة بشار الأسد للسلطة، ما يعني أيضاً نظرة إلى طبيعتها في عصر الأسد الأب.

بنى حافظ الأسد علاقته مع إيران في إطار مسعاه لتوطيد حكمه، وبناء شبكة علاقاتٍ تمكنه من ذلك. مستفيداً من العداء المشترك للرئيس العراقي صدام حسين، وحاجة إيران الماسّة لطرفٍ عربيٍّ يقف معها أثناء حربها مع العراق. وكان الاتجاه نحو إيران بمنزلة تعويضٍ عن خروج مصر منفردة من الصراع مع إسرائيل باتفاقية كامب–ديفيد التي أضعفت الخيارات التفاوضيّة للأسد. كما استثمر الرئيس الأسد الأب في التوازن الإقليمي، بين إيران ودول الخليج التي حرص على علاقةٍ متوازنةٍ معها، وبالقلب منها المملكة السعودية. فكان بمنزلة قناةٍ مفتوحةٍ بين هاتين القوتين الإقليميتين مستفيداً من أداء دور قناة الوصل بينهما ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. عرف التحالف بين الأسد الأب وإيران مساراتٍ متعرجةً، لم يتوانَ أحياناً عن التصادم معها عبر الوكلاء

6- صورة الفتوى أدناه من موقع موسوعة الأفق، http://www.al-offok.com/main/articles.aspx?article_no=15526
7- عبلة مزازي، العلاقات الإيرانية السورية، رسالة ماجستير، كتاب إلكتروني،

كما حصل حينما دفع ودعم حركة أمل في حربها على تمثيل الطائفة الشيعيّة في لبنان مع حزب الله التابع لإيران. كما يُشكُّ أنه سرّب اتفاقية "إيران كونترا" للإعلام[8]، عبر مجلة الشراع، حينما أراد إعاقة التعاون الأمريكي الإسرائيلي مع إيران، ومعاقبة الأخيرة على عدم وقوفها معه في وجه تداعيات قضية "طائرة العال" والحصار الدولي. "ومن المهم ملاحظة أن عشر سنوات من دولة مرشد الثورة الخميني لم تجعل الأسد يزور الإمام الخميني أو يلتقي به لأي سبب كان"[9].

إجمالاً كان حافظ الأسد يتعامل بمصلحيّةٍ مع إيران، ويضع بينه وبين طموحها الإمبراطوري مسافة. كما يراعي التوازنات في المنطقة وعلى المستوى الدولي ما تمكن من ذلك، وهو كان يجد السبل ولو اضطر أن ينحني للريح أحياناً. غير أن الأمر تغيّر تباعاً في حكم وريثه الذي تراخى مع النفوذ الإيراني على سوريا، ومن مظاهر ذلك دخول الإيراني إلى المناطق المحرمة في عصر والده حيث صارت الدعوية الشيعيّة مطلقة اليدين بشكل غير مسبوق[10]. وهذا التراخي، بمقابل التصلّب مع أطرافٍ إقليميّةٍ أخرى، كان النمط السائد للسياسة الخارجيّة للنظام السوري حينما اندلعت الثورة في آذار 2011.

ولهذا التراخي مع إيران، والتحوّل في نمط العلاقة معها من التحالف النّديّ إلى التحالف من موقع الضعيف، أسبابٌ متداخلة، المفصل النوعي منها هو سقوط الاتحاد السوفييتي، وانتهاء الحرب الباردة جارفة معها العلاقات الدولية المرتبطة بها، والتي كان النظام السوري من أمهر من استفاد منها. وعلى الرغم من الحيوية التي حسبت للنظام في محاولة تجاوز مفاعيل انتهاء الحرب الباردة، إلا أنه ووجه بما اعتبره خذلاناً دوليّاً؛ وهو بدأ بما اعتبره تنصلاً أمريكياً من الوعود بخصوص التسوية مع إسرائيل، ومن الوعود التي قدمت له عن ديمومة نفوذه في لبنان الذي انتهى إلى خروجٍ مذلٍّ للجيش السوري. ثم بدأ الحصار الدوليّ على النظام السوريّ، بشكل يوحي بالرغبة في الإطاحة به. الأمر الذي دفع قيادة النظام السوري إلى المزيد من تعزيز العلاقة

8- نعتمد رواية باتريك سيل في كتابه " الأسد الصراع على الشرق الأوسط " عن مسؤولية حافظ الأسد عن الفضيحة، وهو ما تكرر مراراً من بعده من قبل باحثين رصينين منهم فان دام في كتابه " الصراع على السلطةفي سوريا "، على الرغم من وجود رواية أخرى، ترد في مراجع عدة منها دراسة كينيث كاتزمان " الحرس الثوري الإيراني نشأته وتكوينه ودوره"، تتحدث عن مسؤولية مهدي الهاشمي القيادي بالحرس الثوري الذي أعدم لدوره في تسريب المعلومات التي صارت تسمي "فضيحة إيران غيت"،مثلما يرد في دراسة " هو ما أكده رئيس تحرير مجلة الشراع نفسه (يمكن الاطلاع على ما قاله هنا: http://goo.gl/jloavl) إلا أنه في المقالة نفسها ترك الباب مفتوحاً لدور الرئيس السوري، كما أن حقيقة أن الشراع اللبنانية المقربة من النظام السوري حينذاك ما كانت لتنشر التسريب دون معرفة ورضى حافظ الأسد، ولا يوجد أي مؤشر على أن هذه العلاقة تأثرت بعملية النشر سلباً، ما يؤكد أن حافظ الأسد كان المتحكم بالنشر ومسؤولاً عنه.

9- البعث الشيعي 1919-2007، المعهد السوري للدراسات السورية

10- البعث الشيعي، مصدر سبق ذكره

مع إيران. ولم يكن الأب المؤسس الذي بنى النظام السياسيّ، عبر توزيع القهر والعطايا داخلياً، والخدمات والتخريب خارجياً، كالوريث الذي تعامل مع ما لديه من عناصر قوة كحقائق غير قابلةٍ للتغيير بداية، ثم اندفع طالباً الحماية من إيران حين حاصرته الضغوط، بدلاً من الانحناء للريح الدولية والبحث عن حلول مع القوى الإقليميّة.

على أن هذه الفترة تخللها توترٌ سياسيٌّ بين النظامين الإيراني والسوري إزاء العراق؛ بداية عبر الموقف الفعلي من الغزو الأمريكي للعراق، حيث كان الحكم الإيراني قد أعطى موافقته عبر الاتفاقية الأمريكية مع رئيس المجلس الإسلامي الأعلى محمد باقر الحكيم، بينما كان النظام السوري قد تجاوز عداءه مع نظيره العراقي وخَرق الحصار الدوليّ المضروب عليه ، خوفاً من تبعات سقوط النظام البعثيّ التوأم ممّا قد يجعل خطوة إسقاطه هي الخطوة التالية. ولكن عاد التوتر وانضبط بين النظامين الإيراني والسوري بعد أن بدأت إيران في حصاد فوائد تسهيلها غزو العراق ووصلت في مسعاها هذا إلى تمويل الميليشيات التي تقاتل الاحتلال الأمريكي لإخراجه من العراق[11].

وفي حزيران/يونيو عام 2006 وقّع النظامان السوري والإيراني على اتفاقية الدفاع المشترك، وهو ما اعتبره المراقبون نتيجةً للضغوط والتهديدات الدولية والانقسامات الداخلية (التي رشحت لأول مرة في تاريخ النظام عبر انشقاق نائب الرئيس عبد الحليم خدام، وقتل رجل الأمن السوري القوي غازي كنعان في تشرين أول/أوكتوبر 2005). فحاول حزب الله ملء المكان الذي تركه انسحاب الجيش السوري، ممّا زاد من أهمية حزب الله بالنسبة للنظام السوري. وبالنتيجة صارالنظام السوري يجد نفسه محشوراً بين مطرقة الضغوط الدولية وسندان الإنقاذ الإيراني بعدما صار شديد الاعتماد على إيران[12].

11- في صف الشيعة العراقيين كان مركز تيار الصدر المؤَسس على أسس عروبية، والذي لم يشارك في التمهيد للغزو الأمريكي، عكس القوى الشيعية التابعة لإيران، هو من بادر للمشاركة في مقاومة الاحتلال الأمريكي، لتدخل إيران وميليشياتها على الخط بعد أن استفادت من التحالف الدولي لإسقاط نظام صدام حسين، ولتعمل على تفكيك التيار الصدري. للاطلاع على تفاخر هذه الميليشيا، بكثير من المبالغة، وبطمس دور المكونات العراقية الأخرى، مراجعة المقابلات التي أجرتها قناة دجلة العراقية معها بسلسلة بعنوان "بنادق الظل"،

12- إستراتيجية إيران لنشر التشيع في سورية، جريدة الوطن العربي - 2006/6/12، موجودة إلكترونياً على موقع التنوير العربي، http://goo.gl/cRu4AV

في ظلّ هذا الوضع اندلعت انتفاضة السوريّين ضدَّ النظام، فتفاعلت إيران بداية عبر مسارات: الدبلوماسي، عبر الحليف الروسي، ودول "مجموعة بريكس"[13]، وما استطاعت جذبه من الدول التي تملك علاقة معها؛ وأيضاً عبر علاقاتها مع القوى السياسية، مثل بقايا اليسار في المنطقة، وحزب العمال الكردستاني، والقوى الفلسطينية المتواجدة في دمشق؛ والتجييش الإعلامي، عبر القنوات التي تملكها، أو قناة الميادين التي موّلت إنشاءَها؛ وعبر استكشاف إمكانية ترتيب معارضة تتبع لها، وتساعدها على ترتيب الأمور بما يتناسب معها.

ومنذ اللحظة الأولى للثورة دعمت إيران النظام السوري بكل قوة دفاعاً عن نفوذها في سوريا؛ وخوفاً من تداعيات خسارة أحد أهمِّ حلفائها وأقربهم لها، وخشية من أثر سقوطه على وكيلها الأهم في المنطقة حزب الله اللبناني؛ وخشية من ارتداداته على المستوى الداخلي الإيراني وهي لم تبرأ بعد من الثورة الخضراء التي قمعتها للتو. وفعلت ذلك بغية استثمار الصراع لمصلحتها، ولتحويل نتائجه تكريساً لهيمنتها. "ومعروفٌ أن الحكومة الإيرانية، اشترطت على الحكومة السورية في شباط 2015، أن تحصل منها على ضمانات سياديّةٍ قيمتها 20 بليون دولار مقابل تقديم خطٍّ ائتمانٍ جديدٍ بقيمة 4,5 مليار دولار، لتوفير المشتقات النفطية والمواد الغذائيّة."[14]

وكانت الميليشيا الشيعية التابعة لإيران، التي دخلت سوريا للقتال إلى جانب قوات بشار الأسد، من أهم عوامل تماسكه بعد أن بدا في عام 1912 أقرب إلى السقوط. وقد مرّ وجود هذه الميليشيات بأطوار، آخرها استلهام تجربة الحرس الثوري في إيران في ظرفٍ مختلفٍ لا تستطيع فيه ادّعاء تمثيل الأغلبية، والدفاع عن النظام الثوري الناشئ، أسوة بظرف، وادّعاءات، نشأة ميليشيا الحرس الثوري في إيران[15]، فاستبدلت ذلك بطرح "تحالف الأقليات"، وأرخت على عملها اسم "المقاومة" التي سبق لها أن احتكرته في لبنان، موحية من خلاله للأقليات أنها شريكتهم في "مقاومة" الأغلبية تحت عنوان مكافحة تطرّفٍ هي من أبرز من أنتجه مباشرة أو كنتيجة لفعلها. وهي الإستراتيجية التي نحاول، من بين أهداف أخرى لدراستنا، تتبّعها وتتبّع أخطارها.

13- (البرازيل وروسيا والهند والصين وجنوب إفريقيا)، للاطلاع على تأسيسها وأهدافها: مجموعة بريكس، الجزيرة نت، الموسوعة، http://goo.gl/ooL7tw

14- جاد الكريم الجباعي، نتائج كارثية لاقتصاد الحرب في سوريا، تحليل اقتصاد سياسي، مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية، http://wp.me/p431HZ-ek

15- للاطلاع على الحرس الثوري الإيراني: الحرس الثوري الإيراني نشأته وتكوينه ودوره، كينيث كاتزمان، مركز الإمارات للدراسات والأبحاث.

الإستراتيجية الإيرانية للميليشيا الشيعية في سوريا

وضّح خطاب الأمين العام لحزب الله اللبناني "حسن نصرالله"، في 24-5-2015، الذي يمكن عدّه أحد أركان النظام الإيراني، وفاعلاً رئيسيّاً فيه ولاسيّما في المنطقة، إستراتيجية الحرس الثوري الإيراني بهذا الخصوص حيث قال: "نحن نتمسك بالمعادلة الذهبيّة: الجيش، والشعب، والمقاومة...اليوم نقدّم هذه المعادلة لكلِّ شعوب المنطقة لصنع الانتصار". وهو ما يعني، بشكلٍ لا لبس فيه، أنهم أنشؤوها لتكون، بالحدِّ الأدنى[16]، شريكاً للدولة تابعاً لإيران على شاكلة حزب الله بما يضعف سيادة الدولة ويثبت النفوذ الإيراني. وهو ما يمكن اعتباره تصديراً للثورة الإيرانية، تحديداً تجربة الحرس الثوريّ الذي تحوّل من ميليشيا إلى دولة موازية.

وفي تحديد للدول التي يعمل النظام الإيراني على تطبيق هذه المعادلة فيها، وإن كان يزيّف تاريخ البدء فيها، يقول نصرالله في الخطاب نفسه: "هذه المعادلة التي تحمي اليوم لبنان...لنخرجها من الدائرة اللبنانية ونقدمها معادلة لسوريا، وقد بدأتها سوريا من سنوات، ونقدمها معادلة للعراق، وقد بدأها العراق من سنة[17]، ونقدمها معادلة لليمن، وقد بدأها اليمن منذ ستين يوماً[18][19].

إلا أننا في الخطاب نفسه نتبيّن عمومية الدعوة لإنشاء ميليشيا لتطال طوائف أخرى، وهو ما نجده محققاً قبل الخطاب على أرض الواقع في العراق ولبنان ويجري في سوريا. ففي لبنان أنشأ حزب الله ميليشيا "سرايا المقاومة الشعبية"، ودعم مجموعات ميليشياوية صغيرة في مناطق عدة[20]، آخرها ميليشيا "رمزية" للحزب الشيوعي اللبناني. وفي العراق شرعت «كتائب الإمام

16- نجدها مثلاً في العراق تحاول أن تسيطر على مؤسسات الدولة، وفي مرات أخرى الحلول مكانها، كما نجد في ثنايا تقرير لجريدة المشهد بعنوان"تقرير يكشف كيف تدير ايران صراعها مع محاولات استقرار العراق" على الرابط، http://goo.gl/D5f09E

17- أسست إيران عام 1982 أول ميليشيا عراقية تابعة لها في إيران وليس العراق باسم "لواء بدر" الذي صار في النهاية اسمه "فيلق بدر". يمكن التوسع: "منظمة بدر الشيعية" وجوه عراقية... وولاءات إيرانية ، موقع بوابة الحركات الإسلامية، http://www.islamist-movements.com/12148

18- يصر حسن نصر الله على تشويه الحقائق، فهو وضع تواريخ زائفة معتمداً على سيطرة الذاكرة القريبة على الناس نتيجة تفجر الصراع الدموي، بينما تاريخ تحوّل ميليشيا الحوثيين إلى المذهب الشيعي الاثني عشري وولاية الفقيه وتدربها في إيران وعلى يد حزب الله أقدم من تاريخ انقلابها على العملية السياسية وبدء الصراع العسكري.

19 - خطاب حسن نصرالله عبر التلفزة في خطاب 24-5-2015، https://www.youtube.com/watch?v=NIsvlKtdvAA

20- برعاية حزب الله تشكيل ميليشيات شيعية في البقاع وبعلبك يقودها تاجر مخدرات، موقع المصيدة، http://goo.gl/4aPdqp

علي»، التابعة لإيران بدورها، في تدريب مسيحيين بهدف تشكيل جماعةٍ فرعيّةٍ لها تُدعى «كتائب روح الله عيسى بن مريم»[21]. أما بخصوص سوريا فستحوي دراستنا نماذج كثيرة.

ويبني كلٌّ من الإيرانيين وحزب الله الدعوة على حجج تتمحور حول هواجس الأقليات الدائمة، ولكن أيضاً بعض مراكز مدن تجارية سنية، في دعوة لإنشاء تحالفٍ عسكريٍّ سياسيٍّ بوصاية إيرانية. وأهمُّ هذه الحجج "خطر التكفيريين".

أما آلية الإنشاء فهي التبعية لإيران، والارتهان السياسي العسكري لها. نستنتج ذلك من دور حزب الله في لبنان، وقدرته على شلِّ فعالية الحكومة حين يريد، فضلاً عن سيطرته على قرار الحرب والسلم، وهو بمنزلة وكيلٍ مسلّحٍ لإيران. مع العلم أن الحزب لم يرتضِ وجود أيٍّ قوى أخرى ضمن المناطق اللبنانية التي يعتبر أن لها حساسيةً، وحتى ممّن يتبع له ويخدم مصالحه. والميليشيا التي صنعها الحزب بنفسه فمثالها الأبرز "سرايا المقاومة اللبنانية" التابعة له بشكل كامل[22]. أما في العراق فتضغط إيران، والميليشيا الشيعيّة المنضبطة بولاية الفقيه على رئيس الحكومة العراقية "حيدر العبادي" لمنعه من تسليح العشائر السنيّة في العراق لقتال "داعش"[23].

هكذا يظهر بشكلٍ واضحٍ أن الإستراتيجية الإيرانية للميليشيا الشيعية تقوم على استمرارية الاشتباك، بمعنى عدم رهن الصراع بزوال النظام، أي فرض ذاتها كأمرٍ واقعٍ له حضوره في سوريا من خلال خلق تحالفٍ مركّبٍ من مكوّناتٍ طائفية، وإثنية، وعقائدية، لمقاومة تقدم المعارضة السورية في سوريا، وعاصفة الحزم في اليمن، وتنظيم "داعش" في العراق، ولتأمين حصة من الواقع السياسيّ المستقلّ عن النظام الذي تدافع عنه.

ظهور الميليشيا الشيعية في سوريا

أصبح استخدام مصطلح "الميليشيا الشيعيّة" دارجاً في وسائل الإعلام المتنوعة، وتتدرّج "حدة" المصطلح من "الميليشيا الطائفية" إلى "الشيعة" بإطلاق، حسب توجّه وسيلة الإعلام ومدى موضوعيتها، ولخدمة التجييش الطائفي من قبل بعضها. حيث يجري طمس التمايزات بينها وبين

21- «كتائب الإمام علي»: لمحة عن ميليشيا شيعية عراقية متشددة تقاتل «الدولة الإسلامية»، موقع الخليج الجديد، http://www.thenewkhalij.com/ar/node/8577

22- ثائر غدور، الجيش الرديف لحزب الله يتشقق، http://goo.gl/RbpwwE

23- صراع الزعامة والولاء يقسم شيعة العراق، جريدة العرب، http://goo.gl/D5f09E

عموم الشيعة في الحالة الأخيرة، في مسعى لبناء صورةٍ نمطيّةٍ عن طائفةٍ دمويّة موحدة[24]، ما يأمل مطلقوه أن يستفزَّ طرفاً مقابلاً موحّداً في ردّة فعله، لكنهم في الواقع يخدمون إستراتيجية إيران في السيطرة على الشيعة العرب. ويعلن وكلاء ولاية الفقيه صراحةً غضبهم على من يرفض تبعيتهم لإيران[25]، ويرفض زجَّ الشيعة العرب في حروب مع مواطنيهم خدمة لها؛ فها هو حسن نصرالله يهاجم من يخالفه في الوسط الشيعي في لبنان ويدعوهم «شيعة السفارة الأميركية» ويصمهم بـ «خونة وعملاء وأغبياء»[26].

وقد ظهرت الميليشيات الشيعيّة التابعة لإيران عبر الصراع في سوريا تباعاً، ففي بدايات الثورة السورية بدا الأمر مجرد اتهامات إلى حزب الله بالتدخل في سوريا، وكان الحزب والنظام السوري ينفيان تلك الاتهامات، إلى أن تمَّ الإعلان بشكلٍ صريحٍ عنها في معركة القصير في أيار 2013 أي بعد سنتين من الثورة[27]. ولم تقتصر الاتهامات على حزب الله بل كانت تطال جيش المهدي التابع لمقتدى الصدر في العراق، ولاسيما بعد أسر عناصر نسبوا له في أواخر 2011 حسب الشبكة السورية لحقوق الإنسان؛ إضافة إلى فيديوهات ظهرت على موقع اليوتيوب، تبيّن أسر عددٍ من عناصر نسبوا لجيش المهدي[28].

إلا أن الحديث عن جيش المهدي لم يكن دقيقاً، حيث إن هذا الإطار الموحد كان قد بدأ يتفكك منذ 2004[29] بتأثيرٍ واضحٍ لإيران، وأصدر مقتدى الصدر قراراً بتجميده في شهر مارس عام 2008[30]، عندما أمر مقتدى الصدر أتباعه برمي السلاح في أثناء مواجهات مع الجيشين الأمريكي والعراقي. ولعل مصدر اللبس الأول هو مقتدى الصدر نفسه، لإصراره على أنه لم يحلَّ

24- بالإضافة لشواهد عدة تثبت خطأ هذا الإجمال للشيعة، نجد الكثير مما يشهد على صراعات في الوسط الشيعي في العراق وضمن الميليشيات الشيعية هناك، ويمكن بهذا الصدد العودة لتقرير مجلة المشهد سابق الذكر حيث ورد مثلاً: (وتتجاوز الخلافات الشيعية الشيعية الخلاف بين العبادي والمالكي، لتشمل خلافات خطيرة بين الفصائل المسلحة، التي تنقسم إلى قسمين: المجموعة الأولى هي الميليشيات القريبة من إيران والتي ترتبط دينياً بالمرشد الإيراني علي خامنئي وأبرزها "منظمة بدر" و"عصائب أهل الحق" و"كتائب حزب الله" و"سرايا الخراساني"، وهذه الميليشيات لا تحترم قرارات الحكومة كثيراً. أما القسم الثاني فهو الميليشيات الموالية لرجال الدين "علي السيستاني"، و"عمار الحكيم"، و"مقتدى الصدر"، وهي أقرب للحكومة.).

25- يمكن العودة إلى موقف الأمين العام السابق لـ"حزب الله" صبحي الطفيلي مثلاً، "الطفيلي": على نصر الله وخامنئي التنحي لأنهما مسؤولان عن الدماء التي تراق، موقع السورية نت، https://goo.gl/hYxm6N

26- نصرالله: لن نسكت ولن نداري.. إنها معركة وجودية، جريدة السفير، http://assafir.com/Article/421291

27- تورط حزب الله في سوريا الوقائع والآفاق، أحمد يعقوب، الجزيرة نت، 2014/3/17 http://cutt.us/0Ass

28- أعلنت كتيبة عثمان بن عفان في ريف حماه عن اعتقال 3 عناصر من جيش المهدي. وبثت صور البطاقات الشخصية والتحقيق معهم على اليوتيوب: https://www.youtube.com/watch?v=ln5lPBtbjfA ونشر في 2012/8/1

29- عصائب أهل الحق العراقية، الجزيرة نت، http://goo.gl/Cg8RyI

30- مقتدى الصدر يدعو أنصاره إلى إلقاء السلاح والالتزام بالصمت والصبر، مع بيان الأمر، موقع آفاق، http://www.aafaq.org/news.aspx?id_news=4780

جيش المهدي إنما جمّده حتى حلّه رسمياً عام 2012[31]؛ وطوال هذا الوقت كانت تتمّ الإشارة لميليشيا أنشأها باسم "اليوم الموعود"، ولاحقاً "سرايا السلام"، ومنشقين عنه ناصبوه العداء، بهذا الاسم. وهو ما استغله الإيرانيون من خلال تغطية عمل ميليشيا "عصائب أهل الحق"[32] التابعة لها، بقيادة "قيس الخزعلي"، المنشق عن مقتدى الصدر المدعو برداء الصدريين وجيش المهدي للاستفادة من شعبيتهما، كما دعمت إيران أيضاً منازعة الخزعلي مقتدى الصدر على الإرث "الصدري".

وبما خصّ سوريا فإن كلَّ الدلائل كانت تشير، حين شيوع الاتهامات لجيش الصدر، إلى بلبلةٍ في تيار الصدر؛ فإن كان مقتدى الصدر أصرَّ على رفض القتال في سوريا، وظهر بين أتباعه من كان مع الثورة السورية في مرحلتها السلمية، حيث أورد موقع "جنوبية" اللبناني عن أتباع مقتدى الصدر: "رفع أتباعه عام ٢٠١٢ أعلام الجيش السوري الحر تعاطفاً مع الثوار"[33]، فإن المرجع الديني للتيار (كاظم الحائري)، أفتى بالقتال في سوريا لتغطية تنفيذ قيس الخزعلي القرار الإيراني بإرسال مقاتليه لسوريا[34].

كما تبيّن، بما يرتبط مع الوضع السوري، أن "المرجعيّة الشيعيّة في النجف عموماً لا تريد على الأخص التورط بالحرب في سوريا على عكس مرجعية قم"[35]. وإن كانت حريصة على ألّا تصطدم مع الطرف الآخر، لسطوة إيران في العراق، التي تأخذ عدة أشكال منها الإرهاب[36]، وتحت ضغط حالة التجييش الطائفي الشعبي التي ساهمت إيران وحلفاؤها في إنتاجها وعملت

31- التيار الصدري يقرر حل "جيش المهدي" لتحويله لـ"مشاريع فكرية"، رابطة المرأة العراقية، http://goo.gl/V2SiYl

32- " وتعود النشأة الأولى للعصائب إلى عام 2004 عندما وقّع جيش المهدي (الجناح العسكري للتيار الصدري) بزعامة مقتدى الصدر اتفاقاً لوقف إطلاق النار مع المحتل الأمريكي والحكومة العراقية، فأعلن قيس الخزعلي ومعه عبد الهادي الدراجي وأكرم الكعبي، وجميعهم من قادة جيش المهدي الانشقاق عن الصدر مع مجموعة تقدر بالمئات من المقاتلين، الذين قرروا الاستمرار في القتال. ورغم المصالحة التي تمت بين جماعة الخزعلي ومقتدى الصدر في منتصف 2005 إلا أنه في يوليو 2006 تم الإعلان عن تأسيس ميليشيا "عصائب أهل الحق" بشكل رسمي، والتي بدأت في الاستقلال التام في نوفمبر 2008 عن جيش المهدي، بعد قرار الصدر بحل الأخير، واستبداله بمليشيا "لواء اليوم الموعود" التي رفض الخزعلي الانضمام إليها." عصائب أهل الحق .. جنود سليماني ودمى المرجعية، معتز بالله محمد، موقع الراصد، http://alrased.net/main/articles.aspx?selected_article_no=6783

33- موقع جنوبية اللبناني، http://goo.gl/WEKyzw

34- الحائري يفتي بوجوب القتال في سوريا - مرفق الوثيق، موقع موسوعة الأفق، http://www.al-offok.com/main/articles.aspx?article_no=15526

35- كرر مقتدى الصدر موقفه الرافض لمشاركة الشيعة القتال في سوريا، وهو الموقف الذي تسرب أن المرجع علي السيستاني أصدر توجيهاً يتضمنه. نجد مراجع عدة عن الموضوع، منها في موقع "NOW" اللبناني، https://goo.gl/S60pd4

36- من الأمثلة على هذا الإرهاب اتهام مقتدى الصدر "عصائب أهل الحق" بقتل النائب عن تياره صالح العكيلي، مقتدى الصدر يتهم "عصائب أهل الحق" بقتل نائب التيار الصدري، موقع قناة العربية، http://www.alarabiya.net/articles/2012/01/04/186302.html

على استثمارها ضد من يرفض سياستها في الوسط الشيعي قبل غيره[37]. الأمر الذي يظهر جانباً من الصراع ضمن وسط قوى الإسلام السياسيّ الشيعي[38]، ويسمح بتتبع كيف كان همُّ الخطاب العلني لوكلاء إيران استفزاز الشيعة العرب، وإحراج خصومهم في هذا الوسط إما لدفعهم للقتال في سوريا أو لضرب شرعيتهم.

منذ نهاية عام 2011 وصولاً إلى الانفجار الكبير في "ظاهرة" الميليشيا الشيعيّة في 2013، حيث تمّت الملاحظة والتوثيق والتصريح أيضاً عن هذه الميليشيا، وتكاثرها، ليصبح لدينا حالياً أكثر من 24 فصيلاً شيعيّاً تابعاً لإيران في سوريا (صرح حسين همداني نائب القائد العام لفيلق القدس عن أكثر من 40 فصيلاً)[39].

الخريطة الزمنية لتشكل الميليشيا في الأراضي السورية(40)

في 8/29/ 2011 ذكرت صحيفة النهار البيروتية خبراً يفيد بتشييع حزب الله لقتيل يدعى: "حسن علي سماحة"، حيث ذكر مصدرٌ لحزب الله أنه استشهد أثناء أدائه لواجبه الجهاديّ، دون ذكر المكان. في حين نفى مصدرٌ لوزارة الداخليّة اللبنانيّة للصحيفة ذاتها أن يكون سماحة قد قُتل في سوريا، قائلاً إنه مات بحادث سير داخل لبنان.

وجاء الخبر الأهمُّ، بالإعلان عن مقتل "محمد حسين الحاج ناصيف" الملقب بأبي عباس في تشرين الأول 2012، وهو أحد قيادات حزب الله، حيث أعلن الحزب في تشييعه، أنه قتل أثناء أداء واجبه الجهادي. وهذا عزّز المؤشرات عن تدخّل الحزب في القتال الدائر في سوريا[41].

37- يمكن الاطلاع على اللقاء التالي لمقاربة حالة الإرهاب الإيراني للمرجعيات الشيعية العراقية التي تخالفه أو حتى تتمايز عنه: مبدأ ولاية الفقيه بين المفاهيم الشيعية والتجربة الخمينية، لقاء مع رجل الدين الشيعي والسياسي والمؤلف العراقي إياد جمال الدين، موقع قنطرة، http://goo.gl/1X73mJ

38- يبين الكاتب السعودي الشيعي "توفيق السيف" مكامن الخلاف بين التيارات الشيعية، ويراهن على أن تركيز اهتمامها على العمل السياسي في نطاق الدولة يضعف من تأثرها بإيران مستفيداً من ابتعاد المجلس الأعلى للثورة الإسلامية/العراق (تتبع له قوات بدر) عن ولاية الفقيه تحت تأثير العملية السياسية بعد الاحتلال الأمريكي والمرجع الديني علي السيستاني (الذي لا يؤمن بولاية الفقيه العامة). وبدورنا نعكس المعادلة فنجدها صحيحة، حيث تعود إيران للهيمنة على القوى الشيعية العربية (ومن مظاهر الهيمنة العودة لحظيرة ولاية الفقيه) حين تتورط الأخيرة في صراع محتدم، او تورطها إيران فيه. يمكن الاطلاع على طرح الكاتب: توفيق السيف، الأحزاب المرتبطة بالولي الفقيه، المعرفة، الجزيرة نت، http://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/6136be45-b917-4ec1-8c81-d38dbb62e8af

39- العربية نت في تاريخ 2015/3/10، http://cutt.us/VmwXq

40- الميليشيا الشيعية المقاتلة في سوريا، إعداد الشبكة السورية لحقوق الإنسان، 2014/7/5:
http://sn4hr.org/public_html/wp-content/pdf/arabic/shia'a-arabic.pdf

41- المصدر السابق.

ومع تزايد عدد قتلى الحزب في سوريا، أقرَّ الحزب بتورطه في الصراع العسكريّ في سوريا وأخذ يدافع عنه بحججٍ اختلفت حسب أولوياته؛ فمن الدفاع عن المراقد الشيعية استفزازاً للعصبية الشيعيّة، مروراً بأنه يحمي الشيعة بقوله إن "ما يقوم به حزب الله إزاء هذه القضية هو واجبٌ وطنيٌّ وأخلاقيٌّ في حماية اللبنانيين في القرى الحدودية" بحسب الشيخ نبيل قاووق رئيس المجلس التنفيذي لحزب الله[42]، وفي الوقت الذي أعلن فيه أمينه العام دخول قوات الحزب إلى القصير، جاء إعلانه ضمن رواية المقاومة والممانعة، إلى التركيز على هواجس الأقليات الأخرى بالادعاء إلى أنه يقاتل "التكفيريين".

ويمكننا القول، تبعاً للشهادات التي حصلنا عليها، والتقارير التي قمنا بجمعها والتأكد منها، إن تواجد الميليشيا الشيعية، بقي حتى الثلث الأول من عام 2012، ضمن السياق ذاته؛ قبل ذلك كان هناك حديثٌ عن عناصرَ شيعيّةٍ، قد تكون من حزب الله أو الحرس الثوريّ الإيرانيّ وميليشيات عراقية، لكن دون وجود أدلة قوية أو تصريح من قبل هذه الأطراف. واستمرَّ هذا الحال إلى صيف 2012، حيث ظهرت كتائب "أبي الفضل العباس" بشكلٍ صريح في منطقة السيدة زينب في دمشق. علماً أنه في هذا الصيف تمّت عملية اغتيال خلية الأزمة والتي قُتل فيها "آصف شوكت" (نائب رئيس الأركان وصهر الرئيس بشار الأسد) ووزير الدفاع "داوود راجحة" ورئيس مكتب الأمن القومي "هشام بختيار". وخلاله استطاع الجيش الحرُّ أن يحقق تقدّماً كبيراً في محيط العاصمة وقليل من أحيائها الطرفية؛ ممّا يحمل معه دلالةً عسكريّةً ميدانيّة عن حاجة النظام لهذه الميليشيا أولاً وقدرة إيران على الحشد السريع لها ثانياً.

واستمرَّ تزايد عديد الميليشيا الشيعيّة بشكل أكبر في الثلث الأول من 2013، حيث أصبح ظهورها علنياً وكبيراً في مختلف المناطق السورية. فدخل الصراع مرحلةً جديدةً، أضاف له فيها هذا الحضور مزيداً من الشحن الطائفي، فأصبحت المعارضة السورية تجد نفسها في كثير من المواقع أمام قوّاتٍ شيعيّةٍ عراقيّة ولبنانيّة وحتى سوريّة. وفي بداية هذه المرحلة أشهرت الميليشيات عن وجودها في سوريا؛ ففي أيار 2013 أعلن حزب الله بشكلٍ رسميٍّ مشاركته قوات النظام السوري في عملية السيطرة على مدينة القصير في ريف حمص الغربي. حيث أعلن الأمين العام للحزب، حسن نصر الله، في خطابٍ له أن "سوريا هي ظهر المقاومة وسندها،

42- (منصور يمارس 'التضليل السياسي': حزب الله يحمي القرى اللبنانية)، ميدل ايست اونلاين، http://www.middle-east-online.com/?id=153917

والمقاومة لا تستطيع أن تقف مكتوفة الأيدي وتسمح للتكفيريّين بكسر عمودها الفقري"، في تصريحٍ واضحٍ بالمشاركة العسكرية[43] لأول مرة.

في فترة إعلان حزب الله التدخل في القصير، بدأ التصاعد الكبير في عدد كتائب الميليشيا الشيعية، ففي نيسان 2013 ظهرت كتائب سيد الشهداء العراقي (انشقاق عن كتائب حزب الله العراق، بزعامة أبي مصطفى الشيباني، في نيسان 2013)، ودخل سوريا في أيار من العام ذاته. وظهر في منتصف العام فيلق الوعد الصادق (تأسس في العراق في 2006، يتزعمه الشيخ عمار حداد، يتبع للمرشد علي خامنئي وله علاقةٌ وثيقةٌ بحزب الله اللبناني)، وتمَّ الإعلان عن لواء ذي الفقار (يتزعمه أبو شهد الجبوري، برز اسمه من مشاركته في معارك النبك حيث كان في طليعة القوات التي استعادت المدينة من مقاتلي النصرة وداعش). في حزيران من العام ذاته؛ وفي شهر تموز، دخلت قوات "محمد باقر الصدر"، الجناح العسكري لمنظمة بدر (أسسها محمد باقر الحكيم في 1980 بتوجيه من الإمام الخميني، لها جناحٌ عسكريٌّ يدعى فيلق بدر تعمل في ظله قوات محمد باقر الصدر) .

وفي هذه الفترة أيضاً تشكّل لواء كفيل زينب، (يعمل تحت مظلة عصائب أهل الحق، وأعلن عن مشاركته في القتال في سوريا في منتصف العام 2013). ظهر كذلك حزب الله النجباء، في الصيف ذاته، وتمَّ الإعلان عن تشكيل لواء الإمام حسين. وفي تاريخ غير محددٍ من منتصف أو بداية عام 2013 دخل حزب الله- العراق إلى سوريا للمشاركة في القتال. في أواخر 2013 وتحديداً في شهر كانون الأول، ظهر لواء أسد الله الغالب. وتعتبر هذه الفترة هي الذروة في دخول وتشكيل كتائب من الميليشيا الشيعيّة، إذ لا نلحظ تشكل المزيد منها، حتى منتصف العام 2014، حيث ظهر لواء المؤمل- جيش المهدي، في شهر أيار تحديداً. وفي نهاية العام 2014 ظهر مقاتلون أفغان ضمن لواء "فاطميون"، الذي ينشط في محافظة درعا بشكل أساسي، وفي مناطق أخرى تمتدُّ حتى الشمال.

بيانياً، تشير الحركة الزمنيّة لظهور وتدخل الميليشيا الشيعية في سوريا، إلى أن القفزة الكبيرة حدثت بين الثلث الأول والثاني من العام 2013 كما ذكرنا. بعدها وحتى الآن لا يوجد تزايدٌ مطّردٌ أو كبيرٌ في تعداد هذه الميليشيا، لأسبابٍ قد تتعلّق بسيطرة "داعش" على الموصل، وما

43- تورط حزب الله في سوريا الوقائع والآفاق/ الجزيرة نت، مرجع سابق http://cutt.us/mdr5D

رافقه من انسحاب عناصر شيعيّة عراقية إلى العراق، وهو ما انعكس على الحدث السوري، باستقدام عناصرَ أفغانيّةٍ شيعية من عرق الهزارة [44].

ولكنّ الأهمَّ خلال الفترة الحالية (منذ بداية 2015) هو الخطاب الإيرانيُّ الرسميّ: "لقد تدخلنا في اليمن وسوريا لتوسيع خارطة الهلال الشيعي" هكذا صرح "محمد علي الجعفري" قائد الحرس الثوري الإيرانيّ في شهر أيلول من هذا العام[45]، إضافة إلى إنتاج فيلم وثائقي[46] عرضته قناة الأفق الإيرانية وهي قناةٌ غير رسميّةٍ للحرس الثوريّ الإيرانيّ، يتكلم عن قصة أحد المقاتلين الأفغان، الذين جاؤوا ـ كما قال ـ لحماية المراقد الشيعيّة من المتطرّفين الذين يريدون تدميرها في سوريا، أي إن الخطابَ الدينيَّ الطائفيّ الشيعيّ، أصبح هو الخطاب السائد، وهو خطابٌ نقيضٌ لسردية المقاومة التي ينطق به حزب الله والنظام.

44- An army in all corners, Assad campaign's strategy in Syria . Christopfer Kozak, Institution for study of war, April 2015 . Link: http://cutt.us/clfE

45- العربية نت ، 2015/5/8 **http://ara.tv/9qeqa**

46- وثائقي يرصد حياة المقاتلين الأفغان في سوريا، ترجمة السوري الجديد، 2015/5/9 http://cutt.us/qZHh

الفصل الثاني: العلاقة الداخلية في الميليشيا الشيعية وطرق تشكّلها

القسم الأول: ميليشيا موجودة قبل الأحداث السورية، وهي من خارج سوريا.

القسم الثاني: ميليشيا تشكّلت نتيجة الأحداث السوريّة، ودخلت سوريا، أو تشكّلت من قبل السوريين.

القسم الثالث: ميليشيا انقسمت، عن ميليشيا أساسية موجودة في سوريا وفاعلة على الأرض، لسبب أو لآخر.

القسم الأول: ميليشيا شيعيّة موجودة قبل الثورة السورية

لم يكن هناك ميليشيا شيعيّة، داخل سوريا قبل الثورة السورية عام 2011، بينما كانت موجودةً في العراق ولبنان (طبعاً الحرس الثوري الإيراني موجودٌ في إيران، لكن لا يمكن اعتباره ميليشيا لأنه جيشٌ منظّمٌ داخل إيران، كما لا يمكن اعتباره ميليشيا في سوريا، بل جيشاً أجنبياً دخل سوريا بطريقة أو بأخرى). ومن أبرز من دخل منها إلى سوريا:

1- "**حزب الله اللبناني**": متواجدٌ في لبنان، ودخل سوريا في 2013 بشكلٍ رسميٍّ، على الرغم من المعلومات الكثيرة التي تتحدث عن تواجد قواته قبل ذلك الوقت بكثير.

شكّل حزب الله عدة كتائب تابعة له، من الشيعة الاثني عشرية حصراً، والذين يتمتعون بالجنسية السورية في الأصل، ويعتبر تواجده الأكبر في بلدتي نبل والزهراء شمال حلب، حيث ينتظم السكان في هذا الحزب[(47)] وفي حزب الله السوري حديثاً.

2- "**حزب الله العراق**": تشكّل مع دخول القوات الأمريكية إلى العراق، في عام 2003، وأصبح واضح التأسيس في عام 2006، يقوده هاشم الحمداني.

3- "**قوات محمد باقر الصدر– منظمة بدر الجناح العسكريّ**"[(48)]:الفصائل الأولى التي شاركت في الملف السوري، تحت مسمّى قوات الشهيد "محمد باقر الصدر". وهي تابعةٌ لمنظمة بدر التي تأسست في عام 1980 في العراق، تحت مسمّى المجلس الأعلى للثورة الإسلامية. وهي أقدم ميليشيا أنشأتها إيران في سياق الحرب الإيرانية العراقية في مسعى لخلخلة الجبهة

47- مقابلة مع الصحفي مصطفى محمد. وهو صحفي عمل ميدانياً في مناطق حلب، وريفها، الخاضعة للمعارضة. وهو من سكان مارع شمال حلب، ويعمل في صحيفة صدى الشام، وعربي 21، والعربي الجديد.

48- منظمة بدر، برنامج بندقية في الظل، قناة دجلة، حلقة 13، https://www.youtube.com/watch?v=z8TvSYvyPCI

الداخلية للعراق والقيام بحرب عصابات. الأمين العام الحالي للمنظمة "هادي العامري"، وهو من يقود "الحشد الشعبيّ" الشيعيّ في العراق في الحرب على "داعش".

4- فيلق الوعد الصادق: تشكّل في العراق، في عام 2006، بسبب الخلاف داخل التيار الصدري، وجيش المهدي. يعتبر انشقاقاً عن جيش المهدي.

القسم الثاني: أبرز الميليشيا التي تشكّلت بسببٍ مباشرٍ من الوضع السوريّ:

1- "**أبو الفضل العباس**"[49]: تشكّل من عناصر متفرقة من عصائب أهل الحق، والتيار الصدري، ولواء بدر، وحزب الله العراق، وشيعة لبنانيين وسوريين، وذلك في منتصف عام 2012. أسسه أحمد حسن كيارة، وهو عراقيُّ الجنسية، وبعد مقتله استلم اللواء علي حسن عجيب جظة (أبو عجيب) وهو سوري. وصل عدد مقاتليه، حسب خبيرٍ مقرّبٍ من هذه الميليشيات لقناة دجلة العراقية[50]، الى 4000 مقاتل. شارك في معارك في دير الزور والبوكمال وريف حلب بالإضافة إلى محافظة دمشق. وحدثت لاحقاً خلافاتٌ داخل اللواء بين سوريين وعراقيين، لذلك انقسم اللواء إلى قسمين سوريّ بقيادة أبي عجيب، وعراقيّ بقيادة هيثم دراجي. وبحسب وسائل الإعلام، فإن برقياتٍ رسميّةً أرسلت من قيادات اللواء في العراق إلى القيادات في حلب تأمرهم بالانسحاب بشكلٍ فوري، بعد انهياراتٍ أصابت اللواء في العراق وسيطرة "داعش" على مدينة الرمادي مؤخرًا. وأن تعميمًا داخليًّا للواء صدر بعدها يأمر بإغلاق مراكز التطويع الخاصة باللواء في حلب، والمنتشرة في مشروع 3000 في حي الحمدانية وحي صلاح الدين وحي المرديان ومخيم النيرب والمدينة الصناعية والذي افتتح مؤخرًا[51]. ومن العراقيين العائدين من سوريا كان تشكل في العراق "قوات أبي الفضل العباس" التابعة لحزب الدعوة العراقي.

2- "**لواء أسد الله الغالب**": تأسس في كانون الأول 2013، بقيادة أبي فاطمة الموسوي. ويرتدي زيّاً يشبه زي الجيش العراقي.

3- "**فوج التدخل السريع**": أسسه أحمد حجي ساعدي، وهو عراقيُّ الجنسية.

49- بنادق الظل ح12 -قوات "أبو الفضل العباس"، https://www.youtube.com/watch?v=GhJPJYQOQ_4

50- المصدر السابق

51- لواء "أبو الفضل العباس" العراقي يتخلى عن "الأسد" وينسحب من حلب، موقع الدرر الشامية، http://eldorar.com/node/76901

4- "**المقاومة الإسلامية – سرايا الخراساني" أو "سرايا طليعة الخراساني**"[52]: تشكّل اللواء من قبل حزب "الطليعة الإسلامية" العراقي، الأمين العام " علي مهدي علي عباس الياسري ". تشكّلت سرايا طليعة الخرساني في شهر أيلول من 2013 للمشاركة في القتال في عمليات في ريف دمشق بحجة الدفاع عن مرقد السيدة زينب والغوطة الشرقية[53]. وصرّح الياسري عن إرسالهم 600 مقاتلٍ إلى سوريا، قدرهم خبير عراقي بـ 800 مقاتل. كان تواجدهم الأساسي في دمشق ومحيطها والغوطة. انسحب اللواء مع اشتداد المعارك مع "داعش" في العراق وسيطرته على الموصل، وتمّ اعتماد الاسم الجديد وهو "سرايا الخرساني". وصرح الياسري عن بقاء بعض من أفراد السرايا مع تشكيلاتٍ أخرى في دمشق.

5- "**لواء الرضا الشيعي**": يشاع أنها تتشكل من 3000 عنصر، وأن هناك 400 قياديٍّ وخبيرٍ من سوريّين وعراقيّين وإيرانيّين ومن حزب الله، وعلى رأسهم المدعو "أبو زين" وهو شيعيٌّ من قرية المختارية في ريف حمص، والرقيب "حسن قاسم" وهو لبنانيّ[54]. من المؤكد لنا قوة اللواء وتنظيمه، إلا أننا لم نجد سبيلاً للتأكد من الأرقام المذكورة.

6- **كتيبة (47)** "**الزرازير**": كتيبة تابعة للحرس الثوري الإيراني بشكلٍ مباشر، عناصرها من مكوّنات مدينة السلمية ومحيطها، وضباطها من الحرس الثوري. لم نستطع تقدير عددها، إلا أن مهمتها حماية الحواجز في مدينة سلمية ومحيطها. تدور الكثير من الشائعات حول عملية تشيّع ممنهجة داخلها، وارتباط عملها بالحسينية التي أنشأتها إيران، وعدا ملاحظة عملها المنهجي مع الحرس الثوري لم نستطع التوثق من حجم التشيع فيها.

7- "**حزب الله السوري**": تُذكر هذه الميليشيا بشكلٍ محدودٍ بمعارك يخوضها حزب الله اللبناني، ويشير شهودنا إلى أنها على الأغلب تعبيرٌ عن مشروعٍ لحزب الله اللبناني لإنشاء امتدادٍ سوريٍّ له في وسط الشيعة السوريين أكثر ممّا هي واقعٌ قائمٌ بشكل متكامل ومنفصل.

52- برنامج بنادق الظل، حلقة 3 "سرايا الخراساني"، قناة دجلة، https://www.youtube.com/watch?v=xD53rdVgK8s

53- محمد الغزي، مدونة شخصية، سرايا الخراساني- فصائل عراقية، http://sumerianpriest.blogspot.fr/2014/09/blog-post_6.html

54- عدة وسائل ومواقع إعلامية، منها المركز الصحفي السوري، وكالة خطوة الإخبارية http://stepagency-sy.net/archives/36695

القسم الثالث: أبرز الميليشيا الشيعية المتشكّلة نتيجة الوضع السوري، ونتيجة انشقاقٍ عن ميليشيا شيعية أخرى:

1- **لواء "ذو الفقار"**: بسبب الخلاف بين الشيعة السوريين والعراقيين في لواء "أبي الفضل العباس"، انشقّ أبو شهد الجبوري وشكل لواء "ذو الفقار" بعناصر عراقية فقط. وذلك في حزيران 2013. أي نحن هنا أمام شقاقٍ قائمٍ على اختلاف الجنسية، رغم اتفاق المذهب.

2- **"كتائب سيد الشهداء"**[55]: تشكّل نتيجة خلافٍ عراقيٍّ داخليّ، من رحم حزب الله العراقي. أعلن عن تأسيسه في مدينة السيدة زينب، وهو أول فصيلٍ شيعيٍّ عراقيٍّ دخل مدينة السيدة زينب في محيط دمشق بقوة من 50 مقاتلاً. وهنا نحن أمام خلافٍ داخل تجمّعٍ متجانس من ناحية الجنسية.

شاركت ميليشيا "كتائب سيد الشهداء" في معارك الغوطتين الغربية والشرقية، منها معارك عقربا وغربة وحجيرة وسبينة الكبرى وسبينة الصغرى ودير سلمان وحران العواميد وحتيتة التركمان والفروسية والبويضة والحسينية وجوبر وصولاً إلى درعا.

3- **"لواء كفيل زينب- عصائب أهل الحق"**: تشكّل لواء "عصائب أهل الحق" في عام 2004 في العراق من كوادر من جيش المهدي، لخلاف بين مؤسسه قيس الخزعلي مع مقتدى الصدر قائد جيش المهدي، ولتتراوح العلاقة بين الطرفين حتى القطيعة. وهو ما تمّ توضيحه، وذكر مراجعه، في دراستنا.

4- **"حزب الله النجباء"**: ولدت من رحم عصائب أهل الحق المنشقة أصلاً عن جيش المهدي المنحل. أنشأها الشيخ أكرم الكعبي 2013 ثم ما لبث أن انشقّ عن عصائب أهل الحق وتفرّد بالأمانة العامة لحركة حزب الله النجباء. تتألف الحركة من ثلاثة ألوية قتالية وهي: لواء عمار بن ياسر, لواء الإمام الحسن المجتبى, لواء الحمد (انفصل الشيخ حيدر الغراوي، قائد لواء الحمد، مع لوائه، أخيراً عن حركة حزب الله وشكّل كيان "الصدق والعطاء" في العراق. وكان للميليشيا وجودٌ مؤثرٌ في عدة مناطق منها دمشق وحلب. وانسحب الحزب من سوريا الى العراق بعد تطورات الحرب مع "داعش"، ولم يعد يذكر الألوية التابعة له سابقة الذكر[56].

55- بنادق الظل - ح10- كتائب سيد الشهداء، https://www.youtube.com/watch?v=OfibLPkJXj4

56- محمد الغزي، مدونة شخصية، حركة حزب النجباء، http://sumerianpriest.blogspot.fr/2014/09/blog-post_9.html

5- **لواء "الإمام الحسين"**: تشكّل في تموز 2013 نتيجة انشقاق عن كتائب أبي الفضل العباس.

6- **لواء "فاطميون"**: يتكون بشكلٍ أساسيٍّ من شيعة أفغان، تجندهم السلطات الإيرانية من اللاجئين الأفغان شديدي الفقر المقيمين على أراضيها. وقد قامت إيران بالتضحية بهم من خلال إرسالهم على شكل "موجاتٍ بشرية" لمواجهة المعارضة المسلحة في محافظة درعا، ما أدى لوقوع خسائر كبيرة في صفوفهم[57] من بينهم "مهدي صابري"، قائد اللواء خلفاً لعلي رضا توسلي أحد أهم قادة الميليشيات الموالية لطهران والمعروف بقربه من قاسم سليماني قائد فيلق القدس في الحرس الثوري الإيراني[58]. قاتل اللواء في مناطق عدة[59]، أبرزها مساهمته في معارك القنيطرة ودرعا حيث تكبد خسائر موجعة.

7- **لواء "زينبيون"**[60]: يتكون اللواء من عناصر شيعة باكستانيين، يتكلمون لغة "البشتو"[61] الخاصة بمنطقة كورام القبلية والتي تسكنها عدة قبائل شيعيّة من بينها "توري" و"بنجش"؛ وهي القبائل التي تمتعت بدعمٍ، وتسليح، إيرانيٍّ عبر أفغانستان لسنوات، ولاسيّما خلال فترة نفوذ حركة طالبان باكستان في المناطق القبلية، والتي شنّت هجماتٍ ضد الشيعة في المنطقة ممّا دفعهم إلى إنشاء مراكز تدريب للمقاتلين. ويرجح المرجع الذي اعتمدناه بأنه يتمّ تهريبهم من قبل شبكة منظمة تعمل على استقبالهم ورعايتهم، عبر أفغانستان وإيران والعراق إلى سوريا للقتال، كون الطريق بين منطقة كورام القبلية وسوريا طويلة وتخضع لسيطرة عدة جهات ولا يمكن للمقاتلين عبورها دون دعمٍ لوجستيٍّ. يقاتل اللواء بشكلٍ رئيسيٍّ في حلب، وشارك في معارك في القنيطرة ودرعا.

المميز في هذه التشكيلات هو أنها قائمة على أساسين متقاطعين متناقضين جوهرياً:

التمييز على أساس الجنسية والإثنية، وعجز إيران حتى الآن من تشكيلهم بجسم واحد. حيث تنفرز عموم الميليشيا على أساس إثني (بالإضافة إلى الميليشيا العربية هناك مثلاً لواء "فاطميين"

57- " تشيع قائد و نائب قائد لواء فاطميون (الأفغانيّين) المدافعين عن حرم السيدة زينب ـ بمشهد المقدسة"، قناة صوت الأهواز على "اليوتيوب"، https://www.youtube.com/watch?v=BkKP_sEKIu0

58- إيران.. تشييع قائد لواء "فاطميون" المقتول في سوريا، موقع قناة العربية، http://goo.gl/2mV4Bz

59- تقرير تلفزيوني دعوي بعنوان " مستند زيباى گردان رزمندگان شيعه أفغان در سوريه | تصاوير منتشر نشده از فرمانده تيپ فاطميون"، https://www.youtube.com/watch?v=4TfoHkqSrQI

60- "الزينبيون.. باكستانيون يقاتلون دفاعاً عن الأسد"، الجزيرة نت، http://goo.gl/PkYWdO

61- " لواء "زينبيون" الباكستاني يقاتل في حلب"، قناة موقع "زمان الوصل" على اليوتيوب، https://www.youtube.com/watch?v=D5SlHuZeoi4

المكوّن من العنصر الأفغاني[62]، ولواء "زينبيون" الباكستاني. كما نفهم من مقابلة أجرتها صحيفة "كيهان" الإيرانية المعارضة في لندن، مع أحد المقاتلين الأفغان، أنه في البداية كان الشيعة الأفغانيون والباكستانيون في كتيبة واحدة، ثم جرى فصلهم إلى كتيبتين بحسب الجنسية، دون أن يعرف السبب[63]. كما تورد العديد من التقارير عن دفع الأفغان[64] والباكستانيين إلى الخطوط الأماميّة الخطيرة. وينفرز العرب داخلياً على أساس الجنسية (سوري/ عراقي/ لبناني) كما وجدنا في انشقاق لواء أبي الفضل العباس. وينفرز العراقيّون على أساس خلافات وتنافس بين قادتهم.

الفرز على أساس ديني، وكذلك نجد تمييزاً على أساسٍ دينيٍّ، بين القوى الملتزمة بتزمّتٍ بولاية الفقيه وبين تلك التي تتعامل معه بنفعية. مثالنا الأبرز قوات بدر التي تعاملت مع ولاية الفقيه بشكلٍ متباين حسب اضطرارها للدعم الإيراني، وبين فترات الصراع المسلّح والسياسي. كما وجدنا تمييزاً للشيعة الأصليّين سواء أكانوا عراقيين أم سوريين أم لبنانيين أم غير ذلك، يتمتعون بمعاملةٍ خاصّة، وهناك حرصٌ على فصلهم عن الآخرين الذين يتشيّعون. وهؤلاء الذين يتشيّعون هم من السوريّين السنّة أو العلويّين أو الإسماعيليّين، ولو كانوا بنسبة قليلة[65]. ومن الأدلة على تشييع ضمن إطار المنتسبين لهذه الميليشيا من الطوائف الأخرى، وتمييزه، ما وجدناه في هوية أحد الأسرى من لواء "أبي الفضل العباس"[66] الذي تمّ أسره في جبهة البريج في حلب:

الجمهورية العربية السورية

القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة

الحرس الجمهوريّ

الدفاع الشعبيّ

62- "لواء فاطميين" بسوريا.. اصطفاف بلون الدم، الجزيرة نت، http://goo.gl/IbceV4

63- وثائقي إيراني يرصد حياة مقاتلين أفغان في سوريا، السوري الجديد، ترجمة، 2015/5/0. مرجع سابق.

64- الجزيرة نت، المرتزقة الأفغان.. وقود حرب النظام السوري بحلب، http://goo.gl/V5j4HG

65 وهذا ما أكده لنا أبو فراس الحلبي في المقابلة.

66- مقابلة مع الأسير منشورة على اليوتيوب، وتأكدنا منها من خلال "أبي فراس الحلبي" https://www.youtube.com/watch?v=goT11TS8k7g

لواء أبي الفضل العباس "ع"

المجاهد: محمد مصطفى شبلي

رقم وطني: 02010126237

رقم السلاح: 257118

وهو من مواليد 1997 (نلاحظ أن عمره 18عاماً)

تاريخ منح الهوية: 30/9/ 2014 وتاريخ الانتهاء: 30/ 10 / 2014

على الرغم من أن المقاتل ادّعى أنه تمّ "إجباره على الركوع وتقبيل سيف الإمام علي" لتبرير الصور التي في هاتفه الجوال، إلا أننا لا نظن أن هناك عملية إجبارٍ في عملية التطوّع، ولا بعملية التشيّع، إنما هي ناتجةٌ غالباً عن إغراءات، دون أن نستبعد احتمال وجود حالات تشيّع عن قناعة. ويبدو أن الأسير قال خلاف ذلك خوفاً. ونميل إلى أن سبب اقتصار مدة صلاحية الهوية على شهر واحدٍ هو عدم الثقة كونه مجنداً حديثاً، ولذا سيكون المنتسب مجبراً على مراجعة الهيئة التي طوعته كلّ شهرٍ إلى أن يكسب الثقة. ولاسّيما أن هذه البطاقة تمنح حاملها ميزاتٍ لا يمتلكها الجيش، من حيث الراتب والإطعام وعلى الحواجز[67].

كذلك نلحظ في بطاقة الهوية، أن لواء "أبي الفضل العباس" يندرج تحت الدفاع الشعبيّ، والذي يندرج بدوره تحت الحرس الجمهوريّ، الذي يتبع قيادة القوات المسلحة التي يترأسها بشار الأسد. هذه التبعيّة التراتبيّة تخصّ فقط التنظيمات الشيعيّة التي تشكّلت بسببٍ مباشرٍ من الوضع السوريّ، والتي تضمّ سوريّين، في حين لا نجدها حين يتعلق الأمر بحزب الله اللبناني، أو بالميليشيا التي قدمت من العراق.

كما يلفت الانتباه إرفاق الحرف "ع" بين قوسين مقابل اسم لواء أبي الفضل العباس، ومن المعلوم أن "ع" تعني عليه السلام أو علينا منه السلام، أو غير ذلك من التعابير الدينية الشيعية التي تقال عن الأشخاص المقدسين. وهذا يخالف بوضوح الخطاب الخاص بالنظام والذي لا يزال إلى

67- الإعلامي "أبو فراس الحلبي"

الآن يسمّي حزب الله بالمقاومة اللبنانية أو الوطنية، ولا يسمّيها المقاومة الإسلاميّة في أغلب الأحيان.

وهذه الملاحظة ذات صلةٍ كذلك باستخدام تسمية "مجاهد" للمتطوع، وهو اسمٌ إسلاميٌّ، هذا وهو ما يوضّح إصرار هذه الميليشيا على تحديد، وحماية، هويتها الإسلامية بشكلٍ لا يقبل الجدل، حتى ولو كانت تقع تحت الحرس الجمهوري في السلم الإداري.

مع تسجيل ملاحظتنا أن اللغة الدينية لم تقتصر على أسماء الميليشيات الشيعية وتصريحات زعمائها، بل ازدهرت بوضوح على مستوى جمهور النظام، بالاستقلال عن الخطاب الرسمي له، وبالتعارض معه. في القرى العلوية كثر استخدام تعبير "الشهيد المجاهد" للتعريف بضحايا قوات النظام، وذلك بفعل تغذية خفية يقوم بها النظام في ممارسةٍ مألوفة منه دائماً حين يتكلم رسمياً بلغة وطنية، ويتكلم تحتها بكل ألوان التعبئة والتحريض والحشد الممكنة. فالحشد الدينيّ والتعبئة الطائفية أكثر قدرة على الحشد وتبرير العنف الرهيب من الحشد الوطني، وليست الكتائب الإسلامية الجهادية بأكثر براعة من النظام وأعوانه في استخدام هذا السلاح القذر. يبقى أن النظام يحافظ رسمياً على لغة وطنية اعتاش عليها لعقود وليس من المجدي له أن يتحوّل عنها، ولكنه يسمح لنفسه بالتغذية الخفية للفكر الطائفي، وبالاستناد إلى قوى مغرقة في طائفيتها بأسمائها وممارساتها كالميليشيات الشيعية، في صورة مقلوبة عن كتائب الجهاديين الإسلاميين الذين يواجهون النظام.

أسباب التطوّع في الميليشيا الشيعية:

لا نعتقد أن القدرة الكبيرة التي أبدتها طهران في تجنيد مقاتلين شيعة من بلدان عدة للقتال في سوريا يمكن ردها إلى عنصرٍ وحيد. فرغم صحة أن حالة الجيشان الطائفي أسهمت في دفع المقاتلين الشيعة إلى سوريا، إلا أننا وجدنا أسباباً متنوعةً متداخلة نفصلها إجرائياً على الرغم من معرفتنا أنها قد تشكّل كلّها أو بعضها ما يدفع المقاتل للتطوّع. في هذا الفصل نحاول أن نفهم دوافع تطوّع المقاتل الشيعي للقتال في سوريا، وما هي الآليات التي تعتمدها طهران لهذه الغاية.

سوف نذكر، مروراً، بالأمر البديهي وهو أن طهران وحدها المسؤولة عن تجنيد وتشكيل وتمويل الميليشيات الشيعيّة، وهذا الانفراد يظهر أكثر أهميةً عسكرياً وسياسياً إذا قارناه بحالة تعدد المموّلين والمصادر والقوى التي تقف وراء قوات المعارضة.

الدين: نجد أن الخطاب الدينيّ واضحٌ للغاية على صعيد الفرد المتطوّع، وقد يكون أكثر جلاءً من الخطاب السياسيّ لإيران أو لحزب الله، فالشهادات الكثيرة المتوفرة عبر شبكات التواصل الاجتماعي، و"اليوتيوب"، وتلك التي تظهر على وسائل الإعلام، تفصح عن رغبة المتطوعين في الدفاع عن "المقامات الشيعيّة المقدسة في وجه التكفيريين". وهو ما يدعمه النظام الإيرانيّ بخطاب أركانه بشكلٍ مباشر، أو عبر وكلائه من قادةٍ ومراجعَ دينيّةٍ، أو عبر إعلامه، كما في الفيلم الإيراني الوثائقي "معلم" والذي ترجمه موقع "السوري الجديد"[68].

محاكاة الصراع المحلي: يتمّ تقديم العدو المقاتل في سوريا للشيعة الأفغان والباكستانيين على أنه "حركة طالبان"[69]، وللشيعة العراقيين على أنه "داعش" (رغم أنهم لم يقاتلوا تنظيم "الدولة الإسلامية" في سوريا).

المصلحة: تشير تقارير وشهادات إلى المال كأحد دوافع المنتسبين إلى الميليشيا الشيعية من خارج سوريا. وبالنسبة للأفغان الذين باتوا يشكّلون عدداً كبيراً في سوريا، فإن من أسباب القدوم ضمان الإقامة الدائمة في إيران، حيث يعيش الكثير من عرق "الهزارة" الأفغاني الشيعي في إيران بشكلٍ غير شرعي[70]، زد على ذلك التخلص من الحكم الجنائي لمن هو محكومٌ بقضايا جنائية في إيران، حيث تتراوح أحكام بعضهم بين 10 سنوات و15 سنة حتى حكم الإعدام؛ حيث ينصُّ العقد بين المتطوّع المحكوم جنائياً والحرس الثوري الإيراني، على الخدمة القتالية في سوريا لمدة عامين مقابل العفو[71].

68- الترجمة الكاملة للفيلم الوثائقي الإيراني الطائفي المثير للجدل "معلم" ، سنان الحواط، السوري الجديد، 2015/5/18 http://cutt.us/fpCza

69- تقرير تلفزيوني دعوي بعنوان " مستند زيباى گردان رزمندگان شيعه افغان در سوريه | تصاوير منتشر نشده از فرمانده تيپ فاطميون"، مرجع سبق ذكره.

70- الأسد يجلب المرتزقة لأجل البقاء، العربي الجديد، ترجمة عن ديرشبيغل ، 2015/5/11 http://cutt.us/uv1i

71 أبو فراس الحلبي

وتشكّل المراكز الشيعيّة في العراق، وإيران، أبرز أماكن التطويع. ويبرز في عمليات التطويع التركيز الرمزي على المعنى الاثني عشري في العقيدة من زاوية رؤية ولاية الفقيه، من خلال زيارة المقامات، واللقاء برجال دين مبرزين، وفي حالات اللقاء بقيادات من حزب الله اللبناني.

أما بالنسبة **للمتطوّعين السوريّين** فاستطعنا تحديد بعض أسباب تطوّعهم نقلاً عن شهاداتٍ عدة، وهي:

أولاً: السبب الدينيّ المذهبيّ، في حال كان هذا المتطوّع شيعياً في الأصل، فإنه من السهل جداً أن يتطوّع في ميليشيا شيعية مثل حزب الله أو غيره.

ثانياً: الحصول على المال، حيث يزيد راتب المتطوّع على راتب مثيله في قوات الدفاع الوطنيّ والجيش بفارقٍ كبير، إذ يبلغ راتب الضابط في الجيش تقريباً 23 ألف ليرة سورية، في حين يشاع أن راتب المتطوّع في هذه الميليشيا إلى 30 ألفاً أو أكثر[72].

ثالثاً: يحصل المنتسب إلى هذه الميليشيا على ميزاتٍ خاصّة به، مثل الحصول على معونةٍ غذائيّةٍ شهرية، ومعاملة عسكريّة خاصّة تميّزه عن غيره من الجيش والدفاع الوطني.

رابعاً: يصبح الشخص المتطوّع خارج سلطة الدولة نهائياً، أي إنه حتى لو كان مطلوباً لقضايا جنائيّة، فإن الدولة السورية غير قادرةٍ على اعتقاله، وكذلك الأمر في حال كان مطلوباً للخدمة العسكريّة.

سادساً: تتكفل الميليشيا الشيعية بحماية المنتسب لها وأسرته، من لجان الدفاع الوطنيّ (الشبيحة)، وهو سببٌ لدفع عددٍ كبيرٍ من المنتسبين السابقين للشبيحة لترك قطعهم والانتساب للميليشيا الشيعيّة، حيث – كما ذكرنا أعلاه– تشهد العديد من المناطق مثل مصياف، حالات انعدام أمن نتيجة انتهاكات يقوم بها الشبيحة أنفسهم حتى ضدَّ عناصر شبيحة آخرين، وهذا الأمر ذاته يحدث في مدينة سلمية، حيث يقوم الشبيحة الأقوياء بعمليات إجراميّةٍ مثل الخطف وغيرها، حتى ضدَّ الشبيحة الآخرين في حال كانوا أكثر ضعفاً.

72- لا توجد معلوماتٌ مؤكدة، والأرقام المتعلقة براتب المنتسب للميليشيا الشيعية نقلها لنا أحد الناشطين. أما راتب المنتسب للشبيحة (دفاع وطني) فهو يعتمد على السرقة والرشوة وغيرها أكثر من اعتماده على الراتب الذي قد يوازي راتب العنصر في الجيش.

طرق التطوّع بالميليشيات الشيعيّة

أولاً: بالنسبة للعراقيين[73]:

يذهب من يريد التطوّع إلى مدينة الصدر، وهناك يختار الجهة التي يريد التطوّع فيها، وبعد ذلك يُمنح يومين كي يودّعَ أهله، ومن ثمَّ يتمّ نقله إلى إيران، ليخضع لدورةٍ تدريبيّةٍ بعد أداء القسم على قبر الرضا، تستمر الدورة التدريبية لمدة أسبوعين فقط. وبعدها يسافر بجواز سفره العراقيّ (بعد فترة سياحيّة قصيرة في طهران) إلى لبنان، وفي لبنان يلتقي بقيادي من حزب الله لرفع روحه المعنوية، ومن ثَمَّ يتمّ نقله إلى سوريا. فيقاتل في سوريا لمدة 3 أشهر ثم يعود إلى العراق، حيث يكون قد وُعِد بوظيفةٍ حكوميّة، ويتقاضى مبلغاً كبيراً من المال في طهران، قد يصل إلى 5000 دولار. وفي حال مقتله في سوريا، يتمّ تعويض أهله مالياً. تقنياً، هذه إحدى أشكال التطوّع، ونعتقد أن هناك من يبقى في سوريا ولا يعود إلى العراق.

ثانياً: بالنسبة للأفغان[74]:

معظم الأفغان الذين يقاتلون في سوريا، ينتمون إلى عرق "الهزارة" الأفغاني، الذي يتواجد وسط أفغانستان، وهم يدينون بالمذهب الشيعيّ الاثني عشري، ويتكلمون الفارسية. وتعرّض هذا العرق، للاضطهاد عبر فتراتٍ طويلةٍ من الحكم المتشدّد في أفغانستان، وتعرض للتمييز الإثني كذلك، في عهد الملكية.

كانت إيران تنفي تجنيدها للأفغان قبل الشهرين الأخيرين من الآن، في حين كانت هناك مصادرُ إيرانيةٌ غير رسمية، تعلن تجنيد الأفغان[75]. أما الحكومة الأفغانية فقد ذكرت أن هناك أفغاناً يقاتلون مع طرفي الصراع في سوريا، وكانت وزارة الخارجية الأفغانيّة قد كلّفت سفارتها في الأردن بالتحقيق، في حال ضلوع شبكات إيرانية في تجنيد أفغان شيعة في الصراع الدائر في سوريا.

73- خطوات التطوع في الميليشيا الشيعيّة للدفاع عن نظام البعث السوري، كلنا شركاء، 2013/10/2 http://cutt.us/iEOz

74- الأفغان في سوريا جنود آيات الله في خدمة الأسد، صبغة الله صابر، العربي الجديد، 4 نوفمبر 2014 http://cutt.us/UJvGm

75- الجزيرة نت، المرتزقة الأفغان.. وقود حرب النظام السوري بحلب، http://goo.gl/V5j4HG

ويشاع أنه يتراوح الراتب الشهري للمقاتل الأفغاني بين 400 و 500 دولار، أو 2215 دولاراً خلال 3 أشهر مع عطلة لمدة 20 يوماً؛ إضافة إلى رفع التهديد بالترحيل عن الأفغانيّ الذي يقيم بشكلٍ غير شرعيٍّ في إيران(76).

ثالثاً: بالنسبة للسوريين:

في حال كان السوريّ شيعياً بالأصل، فإنه ينتسب إلى إحدى تلك الكتائب، غير "العرقية". وغالباً يتمّ الانتساب إلى حزب الله اللبناني، كما رأينا في نبل والزهراء في حلب، أو إلى إحدى الفصائل المتشكلة للشيعة السوريين مثل حزب الله السوري أو القسم السوريّ من أبي الفضل العباس، أو يتمّ تشكيل لواء خاص بهم، مثل الرضا الشيعيّ في ريف حمص وحماه الشرقي.

من ناحية أخرى، السوريون غير الشيعة، ويشملون السنة والعلويين والإسماعيليين، الذين يتشيعون، يتمّ تنسيبهم إلى كتائبَ شيعيّةٍ مقاتلة تمّ تشكيلها حديثاً، حيث تبقى مميزةِ عن الشيعة الأصليين؛ والمثال الذي لدينا هو تشكيل كتيبة (47) "الزرازير" في ريف سلمية(77)؛ بما في ذلك تنسيبهم لمتطوعين تحت مسمى "حزب الله"، بأطرٍ صمّمت خصوصاً لغير الشيعة الأصليين، بحيث يمكن الجزم أنها مجموعاتٌ مقاتلةٌ كأنصار لحزب الله، يقودها قادةٌ منه، ولا يعني الوجود فيها الانتماء الفعلي للحزب؛ وهو ما نجده في مدينتي السويداء وسلمية. ومن الواضح أنها أحد أشكال التحايل للاستقطاب.

وبحالاتٍ ينضم المتطوعون السوريون إلى ألويةٍ أُنشِئت لتستوعب عددياً من لا يمكن الجزم بولائه، أو عقيدته، وحيث لا يؤدي استيعابه إلى مشكلات مع البنية العقائدية للمقاتلين الآخرين.

ومعظم عمليات التطوّع في هذه الميليشيا تتمّ عن طريق العلاقات الشخصيّة، فجميع المتطوعين الذي وقعوا في الأسر قالوا إن أقارب، أو أصدقاء، لهم هم من طوّعوهم؛ وذلك في تسجيلات الفيديو المبثوثة لهم. وطريقة "القربى" في التطويع تزيد من إمكانية التحقق من الولاء بالنسبة للميليشيا. ومع هذا هناك بعض الشهود الذين أخبرونا أنهم شاهدوا ملصقات في حي صلاح

76- وثائقي إيراني ... مرجع سابق

77- (من خلال تجربة الباحث غريب ميرزا في المنطقة الوسطى، نعتقد أن الكتائب المتشكلة حديثاً مثل لواء الرضا من الممكن أن يقبل أشخاصاً متشيعين حديثاً، في حين يكون ذلك صعباً أو مستحيلاً في الكتائب الشيعية القوية والمعروفة مثل حزب الله، كما يبدو من التقارير التي جمعناها).

الدين الحلبي، تدعو الشباب للتطوّع في إحدى الفصائل الشيعيّة، وحتى لو تأكد صحة هذا الأمر فهو أمرٌ محدودٌ بمقابل اعتمادها على التطوّع عبر العلاقة المباشرة (القربى، الصداقة، وغيرها).

استنتاجات

1- **من الفصول السابقة نعرّف الميليشيا الشيعيّة في سوريا على أنها:** مجموعاتٌ وتنظيماتٌ مقاتلة غير رسمية تتبع لولاية الفقيه عقيدة وتوجّهاً وتتبع للدولة الإيرانية من حيث التمويل والتوجيه. زجّت إيران هذه المجموعات في الصراع السوري؛ حيث أحضرت معظمها من العراق ولبنان، وأنشأت بعضها في سوريا من مقاتلين شيعة أفغان ويمنيين وسوريّين ومن دول أخرى. وإذا كان وجودها الأصليُّ هو منتج الصراع الاجتماعيّ السياسيّ في المنطقة، ومنه الصراع على السلطة، والمظلوميّات الناتجة عنه التي تتوزعها الأطراف بينها(78)، فهي بجانب من هذا الصراع منتج محاولات النظام الإيراني الاستفادة من حرف الصراع الاجتماعي السياسي إلى صراعٍ طائفيٍّ محض لتحويل الشيعة في البلدان الأخرى عن معتقداتهم إلى ولاية الفقيه؛ تحت ضغط حاجتهم للحماية نتيجة هذا الانحراف، وحاجتهم للإسناد في مواجهة تحديات أسهم هو في وجودها(79). وهو ما يعني سياسياً تحويلهم لتبعية الحكم في إيران نفسها. إلا أن هذه العملية، التي بدأت مبكراً بعد سيطرة الملالي على الحكم في إيران(80)، طويلة ومعقدة وتجد مقاومة في الأوساط الشعبية والدينية وحتى الشيعية منها في هذه البلدان ومنها مرجعيّاتٌ دينيّة لا تقبل بها(81).

2- تتميز الميليشيا الشيعيّة في سوريا عن تكوينات مقاتلة أخرى موجودةٍ في سوريا ومدعومة من إيران مثلها(82):

78- يوسف فخر الدين، قوميات ومظلوميات في هذه المنطقة، جريدة الحياة اللندنية، http://alhayat.com/Details/546711

79- السيد محمد علي الحسيني، نظام ولاية الفقيه وحرب المقدسات، الجزيرة نت http://goo.gl/zKLyn0

80- في لقاء على فضائية الجزيرة مع د. أبو الحسن بني صدر(1933)، الرئيس الإيراني الأول بعد الثورة (1980-1981) ، قال حرفيا:" كان يريد (المقصود الخميني) إقامة حزام شيعي للسيطرة على ضفتي العالم الإسلامي، كان هذا الحزام يتألف من إيران والعراق وسوريا ولبنان وعندما يصبح سيداً لهذا الحزام يستخدم النفط وموقع الخليج الفارسي للسيطرة على بقية العالم الإسلامي، كان الخميني مقتنعاً بأن الأمريكيين سيسمحون له بتنفيذ ذلك، قلت له إن الأمريكيين يخدعونك، ورغم نصائحي ونصائح ياسر عرفات الذي جاء ليحذره من نوايا الأمريكيين فإنه لم يكن يريد الاقتناع." http://www.khomainy.com/arkho/articles-40.html

81- المرجع الديني السيّد علي الأمين، السيّد علي الأمين: ولاية الفقيه شأن إيراني وحزب الله وأمل أساءا للشيعة العرب، لقاء في المجلة اللندنية، http://goo.gl/6nDhjf

82- منها فصائل فلسطينية وكردية. يمكن مثلاً الاطلاع على الاتهامات التي توجه لحزب العمال الكردستاني لعلاقته مع النظام الإيراني، https://goo.gl/HgVNF6

أولاً– جميع المنتسبين لهذه الميليشيا يعتنقون ويمارسون العقيدة الشيعيّة، حتى لو لم يكونوا شيعةً في الأصل.

ثانياً– لهذه الميليشيا وضعٌ مميّزٌ أمام النظام السوري، (المنتسب لها ولو كان سوريّاً يصبح حرّاً من حيث الملاحقة للجيش والخدمة الإجباريّة) كما سنرى لاحقاً في هذه الدراسة.

ثالثاً– يأتي المتطوّع فيها ـ كما يقول ـ للدفاع عن المراقد الشيعيّة: الست زينب، سكينة في داريا، ورقية في دمشق القديمة، وغيرها. إلا أنه في الواقع لا يقتصر هذا "الدفاع" على التواجد في محيط هذه المراقد، بل يتعداه بحيث تصبح مهاجمة الأعداء (أعداء النظام السوري) في أيِّ نقطةٍ من سوريا جزءاً من هذا الدفاع. ويؤدّي الحشد الدينيّ الشيعيّ دوراً أساسيّاً في التجنيد الطوعي، إضافة إلى الإغراء المالي، أو الإعفاء من السجن لبعض المعتقلين الشيعة في إيران مثلاً.

رابعاً: يعتمد حزب الله في تغطية تدخله في الحدث السوري على خطابات مختلفة، فبعد أن تحدث في البداية عن حماية الشيعة اللبنانيين في القرى الحدودية، ثم عن حماية المقامات الشيعية، زجَّ بقصة الدفاع عن المقاومة التي يريدون اغتيالها من سوريا. يصوّر الحزب دخوله الصراع السوري على أنه حربٌ استباقية، "لو لم نقاتل في المدن السورية، لكنا سنقاتل في بعلبك والهرمل والغازية وصيدا وصور والنبطية وغيرها من القرى والبلدات والمدن اللبنانية[83]."

بعبارة موجزة، الميليشيات الشيعية في سوريا هي مجموعاتٌ قتاليّة، طوعيّة، عقائديّة حاملةٌ للمذهب الشيعيّ الاثني عشري، تتبع ولاية الفقيه بأغلبها، تمتاز باستقلالها النسبي عن قرار النظام السوري[(84)].

83- كلمة نصر الله بمناسبة يوم الجريح في 23 أيار 2015. http://assafir.com/Article/421291/MostRead

84- An army in all corners, Assad campaign's strategy in Syria . Christopfer Kozak, Institution for study of war, April 2015 . Link: http://cutt.us/clfE حيث يذكر الباحث أن هذه الميليشيا مستقلة القرار.

الفصل الثالث: الوظيفة العسكرية للميليشيا الشيعيّة في سوريا

أ. دمشق وريفها

شكّلت دمشق بمقاماتها الشيعية المعروفة، كالسيدة زينب جنوب دمشق، ومقام رأس الحسين في الجامع الأموي وسط دمشق، ومقام السيدة رقية في دمشق القديمة، وأخيراً مقام "سكينة" والذي تعمّد "أحمدي نجاد" زيارته، وهو مقامٌ يقع في داريا(تمّ تدميره في شهر آذار 2015 أثناء المعارك)، شكّلت الحجة والمبرر المعلن على صعيد التجييش الدينيّ الطائفي، لحشد المتطوعين، على اعتبار أن "السنة" أو "التكفيريين" يهددون هذه الأماكن الشيعية المقدسة.

في حين برر حزب الله في خطابه المعلن تدخله بطريقة مغايرة. ولئن كان برر تدخله الخجِل في بداية الحدث السوري بحديثٍ عن حماية القرى اللبنانية الحدودية، وأحياناً عن حماية الشيعة في هذه القرى التي يستهدفها التكفيريون، فإنه غطى تدخله الواسع الصريح فيما بعد بأنه دفاعٌ عن "ظهر المقاومة" المتمثل في النظام السوري، معتبراً أن جهاده في سوريا هو استكمالٌ لدوره المقاوم بشكل آخر.

وكانت منطقة السيدة زينب والمناطق الجنوبية من دمشق المعقل الأساسي للميليشيا الشيعيّة، حيث ظهرت فيها بشكل واضحٍ وعلنيٍّ، كتائب "أبي الفضل العباس" في منطقة السيدة زينب، وذلك منذ صيف 2012، وشاركت في المعارك المحيطة بمنطقة السيدة زينب. وإلى الجنوب الشرقي من منطقة الست زينب، يقع مطار دمشق الدولي، وهناك وعلى طول الطريق إلى المطار، والذي يحدّه من الجانبين، مناطق هامة (كالبويضة والذيابية غرب طريق المطار، والنشابية ودير سلمان وحران العواميد وغيرها شرق الطريق)، شاركت كتائب "أبي الفضل العباس" وكتائب شيعيّة أخرى عديدة، في هذه المعارك، وذلك بين أواخر 2012 وأوائل 2013. (شملت المعارك مناطق مثل بيت سحم وببيلا وغيرها).

وأكد شهودنا على أن الميليشيات الشيعية تمنع عودة الأهالي إلى البلدات التي استولت عليها مع جيش سلطة الأسد في محيط مدينة السيدة زينب التي حوّلتها إلى مستعمرةٍ شيعيةٍ بشكل كامل. وهذه المناطق هي الحسينية، والديابية، البحدلية، السبينة، البويضة، حجيرة. وقد ورد وصف

منطقتين منها في تقريرين لجهتين فلسطينيتين كونهما مخيمين فلسطينيين؛ تقرير في مجلة الدراسات الفلسطينية[85]، والآخر لمجموعة العمل من أجل فلسطينيّي سوريا[86].

ونقل لنا شهودنا بأن الميليشيا الشيعية سمحت بإقامة بعض أسر مقاتلين من ميليشياتٍ مواليةٍ لها في بعض هذه البلدات، وبشكل محدود.

ومن المعارك الهامّة التي غيّرت من موازين القوى لصالح النظام معركة استعادة مدينة المليحة، واستمرت 135 يوماً من المعارك الطاحنة، وأدت إلى تدمير 85% من بنية المدينة التحتية. وكان لحزب الله والميليشيا العراقية دورٌ أساسيٌّ فيها. بينما شكّلت معركة "استعادة العتيبة" وهي المدخل الرئيسي للغوطة الشرقية واحدةً من أهم المعارك التي قادها مقاتلو وضباط حزب الله اللبناني، والتي كانت مدخل الغوطة الشرقية إلى البادية وباباً لدخول السلاح إلى المعارضة.

وفي منطقة سبينة الإستراتيجية، لكونها تتاخم مدينة داريا من الشرق وتقع إلى الغرب من منطقة السيدة زينب، فقد كان لكتيبة: "أسد الله الغالب"، الدور الأكبر لاستعادة السيطرة عليها.

وتحضر الميليشيا الشيعيّة بشكلٍ عام في مناطق الغوطة الشرقية وجوبر، وكان لها دورٌ في حصار الغوطة ومنع السكان من مغادرتها أثناء مجزرة الكيمياوي في آب 2013.

وفي معارك النبك شمال شرق دمشق، ظهر بقوة لواء "ذو الفقار"، واستطاعت الشبكة السورية لحقوق الإنسان توثيق عددٍ من المجازر التي ارتكبها في تلك المنطقة[87].

وفي محاذاة الحدود اللبنانية، في يبرود والقلمون الغربي بشكلٍ عام وصولاً إلى الزبداني، يخوض حزب الله معاركَ عنيفةً وتمكن من السيطرة على أجزاء من هذه المنطقة، باعتبار أنها في حال سقطت في يد جبهة النصرة والكتائب الإسلامية التي تتولى العمليات القتالية هناك فستفتح الباب أمام العمق الجغرافي لحزب الله في لبنان؛ لذا يستلم حزب الله هذه المنطقة عسكرياً بشكل كامل تقريباً، وذلك منذ شباط 2014. وفي أثناء إعداد هذا البحث تجددت المعارك في القلمون الغربي

85- يوسف زيدان وإبراهيم العلي، اللاجئون الفلسطينيون في المحنة السورية: محطات وإحصائيات، مجلة الدراسات الفلسطينية، ملف اليرموك كارثة أكبر من مخيم، العدد 103، ص57.

86- مخيمات بلا لاجئين، تقرير توثيقي يعرض أوضاع المخيمات الفلسطينية المهجرة في سوريا (سبينة- الحسينية- حندرات)، http://goo.gl/20dL5M

87- الشبكة السورية لحقوق الإنسان مرجع سابق http://sn4hr.org/public_html/wp-content/pdf/arabic/shia'a-arabic.pdf

بين جيش الفتح، وهو تجمّعٌ من الفصائل المعارضة وجبهة النصرة من جهة، وما بين حزب الله من جهة أخرى. وقدّمَ الطرفان معركتهم على أنها معركةٌ مصيريّةٌ نتيجة موقعها الجغرافي الذي يجعلها مؤثرةً على الداخل اللبناني من جهة عرسال، الجاهزة لنقل الحرب إلى الداخل اللبناني إن توفرت شروطها، ويسمح لمن يسيطر عليه السيطرة على الطريق الحيوي بين دمشق والساحل وحمص.

وحالة النفوذ التي تتمتع بها هذه الميليشيا على مؤسسات النظام، تتزايد الدلائل عليها، حتى إن تقديمها لمصالحها الخاصة قد يؤثر على القرار السياسيِّ الداخليّ الذي يتّخذه النظام، ومن ذلك المعلومات التي تقول بمحاولة الميليشيا الشيعيّة تخريب الهدنة في كلٍّ من بيت سحم وببيلا، من خلال خرقها وإطلاق النار على المسلحين المعارضين فيها، والسبب كما يرى بعض شهودنا هو رغبة هذه الميليشيا في دفع التواجد السني بعيداً عن مقام السيدة زينب مقرها الأساسي[88]. وهذا يتفق مع ما ذكرناه سابقاً أن تواجد الميليشيا الشيعية في دمشق، سيحمل معه تأثيراً ملموساً على أي قرار تتخذه العاصمة الخاضعة للنظام.

إجمالاً ركّزت الميليشيا الشيعيّة الكثير من جهدها في تأمين العاصمة دمشق وكل المناطق والطرق التي تضمن استقرارها لمصلحة سلطة الأسد. فكان لها دورٌ أساسيٌّ في السيطرة على مناطق كانت قادرةً على تغيير موازين القوى، كما هو الحال في المليحة والعتيبة. لكن هذا التواجد الأقوى في العاصمة السورية، لا بدّ أنه حمل دلالاتٍ هامةً بشأن العلاقة المستقبلية ـ وحتى الحاضرة ـ التي ستفرضها هذه الميليشيا، حيث أصبحت قوةً عسكريّةً لا يمكن تجاهلها في قلب العاصمة، وهذا يعني أنها لا تحمي الأسد من الأعداء المحيطين به في الغوطة فحسب، وإنما صارت قوةً موازيةً للجيش والفرقة الرابعة والحرس الجمهوري، وأصبحت عنصراً جديداً، سيؤثر في أيّ قرارٍ سياسيٍّ أو عسكريٍّ قد يتخذه الأسد أو المقربون منه.

ب. المنطقة الشمالية (حلب وإدلب)

نبدأ من الشمال حيث توجد عدة مناطق يشكل الشيعة السوريّون أغلبية سكانها، وهي بشكل أساسي:

88- الميليشيات الشيعية ترفض الانصياع لقوات نظام بشار الأسد، كلنا شركاء، 2014/11/17 ، http://cutt.us/8dK1

نبل والزهراء في شمال حلب، كفريا والفوعة في شمال إدلب وجنوب غرب مدينة حلب، إضافة إلى بعض المناطق في جسر الشغور. وجميع هذه المناطق حتى تاريخ إعداد هذا البحث، خاضعةٌ للنظام بشكل كامل، وتعتبر نقاطاً عسكريّة هامّة، مدعّمة ومحصّنةً بشكل جيد. وتشير الدلائل إلى اهتمام إيران المركزي بها. ومن دلائل هذا الاهتمام المفاوضات التي أجرتها في 2014 مع الجبهة الإسلامية، والتي أدّت إلى إخلاء حمص القديمة من المعارضين المسلّحين، وكانت إحدى البنود تفرض السماح بإدخال مساعداتٍ غذائيّة وغيرها برّاً إلى مدينتي نبل والزهراء نظراً إلى أن المدينتين محاصرتان بشكل كامل من قبل قوات المعارضة، ويتمّ تقديم الغذاء والمواد اللازمة لهما عن طريق الجو، وعن طريق التهريب عبر عفرين الكردية المحاذية لهما. وهذا دليلٌ على النفوذ الإيراني على النظام السوري الذي لا يكترث بالتفاوض على أسراه السوريين.

تشكل المناطق الشيعيّة المذكورة، مجالاً عسكريّاً للنظام السوري، بالاعتماد على السكان الشيعة الذين هم أغلبية فيها، إذ ينتظم أهالي مدينتي نبل والزهراء بشكل أساسيٍّ ضمن تشكيلات حزب الله اللبناني، وكتيبة قمر بني هاشم الجوالة(89). وبالنسبة لانتمائهم إلى حزب الله، فإن عدداً منهم قد انتسب إلى هذا الحزب، منذ حرب تموز 2006، حتى إن بعضهم قتل في هذه الحرب، وأعلن شهيداً(90).

أما في قلب حلب المدينة، ومنها حلب القديمة، تعتبر الميليشيا الشيعيّة قوةً عسكريّة أساسية، ولاسيما حزب الله، الذي ينتمي مقاتلوه إلى أهالي نبل والزهراء(91). علماً أن حزب الله هو التنظيم الوحيد بين الميليشيات الشيعيّة الذي يقوم برفع علمه الخاص في حواجز يقيمها داخل مدينة حلب(92). ويشارك لواء "أبي الفضل العباس" في عمليّاتٍ عسكريّةٍ في داخل مدينة حلب وريفها. وتقوم الميليشيا الشيعية داخل مدينة حلب بعمليّاتٍ ذات طبيعة أمنية مثل: التمركز على الحواجز

89- وهي كتيبة صغيرة لا يبلغ عدد عناصرها 200 مقاتل من سكان نبل والزهراء، اكتسبت شهرتها بسبب مرافقتها للوسائل الإعلامية المؤيدة للنظام. راجع مقال منشور "الميليشيات الشيعية في سوريا القصة بالدم والأرقام"، العربية نت، 9/يونيو/2014 http://cutt.us/ZcHV

90- مقابلة أجريناها مع الصحفي مصطفى محمد، مصدر سبق ذكره.

91- مقابلة مع الصحفي "مصطفى محمد"

92- الإعلامي "أبو فراس الحلبي" الذي أخبرنا أيضاً أن مقاتلي حزب "الله السوري" ينتمون إلى الشيعة السوريّين ولاسيما من أهالي نبل والزهراء الحلبيتين.

والحراسة، وعمليات المداهمة للبيوت المشبوهة بوجود "ثوار" فيها أو كانت لأحد "الثوار" سابقاً، إضافة إلى عمليات اعتقال، قد تجري من غير علم النظام(93).

ومن الجدير بالذكر أنه في مطلع شباط 2013، ظهرت لأول مرة كتائبُ شيعيّةٌ غير سورية، وذلك في اقتحام الريف الجنوبي لحلب، والسيطرة على مدينة خناصر، الواقعة على طريق الإمداد الرئيسي، وصولاً إلى السفيرة والمناطق التي تقع شمال وشرق حلب.

وفي حزيران من العام ذاته، حدث ما سمّي بمجازر الآبار في المنطقة المجاورة لطريق الإمداد المار من خناصر، وذلك على يد كلٍّ من لواء "أبي الفضل العباس"، و كتيبة عمار بن ياسر (94).

وفي تلك الفترة ظهرت مؤشراتٌ تدلُّ على مشاركة عناصر من الحرس الثوريّ الإيرانيّ، على الصعيد الميداني والمباشر، حيث تمَّ قتل عددٍ منهم في قرية عسان جنوب حلب(95). وفي شهر تشرين الأول / 2014، تم أسر 3 عناصر من القوات التي هاجمت منطقة حندرات شمال حلب، ليتبيّن أنهم يحملون الجنسية الأفغانية، من شيعة الهزارة(96).

وفي محاولة النظام السيطرة على حريتان ورتيان الواقعتين في شمال حلب، في شهر شباط من العام الجاري (2015)، والتي مني فيها بهزيمةٍ على يد قوات المعارضة، تمَّ أسرُ سبعة عناصر سوريّين ينتمون لحزب الله اللبناني، من قبل الجبهة الشامية؛ وبالاستناد إلى معلوماتٍ أوردها ضابطٌ سوريٌّ منشقّ، أن ضباطاً إيرانيّين ومن حزب الله قد وضعوا خطة الهجوم، وبلغ عدد القوات الشيعية 70 من الزيديين و200 من العراقيّين، و300 من حزب الله بعناصر لبنانية وسورية، وكان هناك عددٌ صغيرٌ من العناصر الإيرانية التي تولّت مهامَّ حساسةً مثل الهندسة العسكريّة ورمي الصواريخ وغيرها(97).

وكنا قد حصلنا على معلومات أن الأفغان يقومون بعمليّاتٍ انغماسيّة أثناء القتال، وهذا ما يجعل النظام يعتمد عليهم، وكان لهم الدور الأول في السيطرة على حندرات شمال حلب. في حين نفت

93- الإعلامي "يحيى مايو"
94- الشبكة السورية لحقوق الإنسان، مرجع سابق.
95- تقع القرية إلى الغرب من السفيرة بمسافة 12 كم تقريباً.
96- خارطة الميليشيات الأجنبية الموالية لقوات الأسد، رامي سويد، العربي الجديد، 2015/4/14 http://cutt.us/7x4Mu
97- المرجع السابق.

مصادرُ أخرى لنا موضوع "الانغماس"، لكنها أكدت أنه هناك من الأفغان ومن الإيرانيّين واللبنانيين، من لا يسلمون أنفسهم في حال الحصار، بل يقومون بقتل أنفسهم. ودلّلت المصادر على ذلك بحادثةٍ جرت في جبهة الملاح، شمال حلب، في شباط الماضي، حيث تاه نحو 300 مقاتلٍ أفغانيٍّ وإيرانيّ في المنطقة، وذلك بعد أن قتل الأدلاء الذين يعتمدون عليهم، فتمكّنت قوات المعارضة من قتل 120 وأسر 10 مقاتلين، في حين تحصن 13 عنصراً منهم في بناءٍ مهجور، ولم يقوموا بتسليم أنفسهم، فاستمرَّ حصارهم 12 ساعة، إلى أن قتلوا، ومن ثمّ تمّت مفاوضة النظام على جثثهم، مقابل إطلاق سراح معتقلين مدنيّين لديه.

ولم نستطع أن نتبيّن تعداد المقاتلين الشيعة مقارنة بقوات النظام، ففي حين قدرتها بعض مصادرنا بأكثر من 50%، اعتبرت مصادر أخرى أن عددهم أقلُّ من ذلك اعتماداً على عدد الأسرى الذين سقطوا في يد قوات المعارضة في الشمال الحلبي وكانوا: 40 جندياً ضمن جيش النظام وهم جميعاً من السنّة، و10 شيعة فقط من مدينتي نبل والزهراء. ولكن المؤشرات تقول إن للشيعة دوراً قيادياً. فحسب أحد المنشقين عن النظام وهو من جمعية الزهراء في حلب، كان هناك ضابطٌ لبنانيٌّ يدعونه "السيد" يقوم بتفقد القوات السورية وغيرها، ويلقي الأوامر للجميع، بما في ذلك الميليشيا الشيعيّة والجيش السوري والضباط السوريّون. وحسب هذا المصدر كان قائد عملية رتيان يلقب بـ"السيد كميت" وهو شيعيٌّ لبنانيٌّ، وكان يعطي توجيهاته للعقيد "سهيل الحسن" المعروف بالنمر. وتقول مصادرنا إن ضباط حزب الله يتولون قيادة المعارك، ويخضع لهم الأفغان والإيرانيّون والجيش السوري.

من الواضح إذن أن هناك تنوّعاً في جنسيات المقاتلين الشيعة وتعدداً في الكتائب التي ينتمون إليها، ولهذا التعدد مدلولٌ سوف يكشفه لنا التقدم في البحث.

ت. في المنطقة الوسطى

يتواجد الشيعة السوريّون، في عدّة مناطق داخل مدينة حمص، وكذلك يتواجدون في الريف الحمصي في الكثير من القرى الصغيرة (تبلغ أكثر من 50 قرية تقريباً)، أهمّها أم العمد وأم جباب وجنينات، حيث يشكلون مساحةً ديموغرافيّة ستؤدّي دوراً في تشكيل الميليشيا الشيعيّة.

أهمُّ المعارك التي شاركت فيها الميليشيا الشيعيّة، هي معركة القصير في نيسان 2013، من قبل حزب الله اللبناني.

تشير بعض التقارير وبعض الشهادات من ناشطين سوريين، أن حزب الله لم يكن مشاركاً فقط، بل إنه منع قوات النظام من المشاركة في معارك القصير، باستثناء تقديم الدعم اللوجستي والتغطية المدفعيّة والصاروخيّة والطيران. أما على الأرض، فإن الحزب قاد المعركة بنفسه، حتى استطاع السيطرة على مدينة القصير وريفها(98).

وفي الريف الشرقي لحمص حيث توجد معظم القرى الشيعيّة، تشكل هذه القرى بشكلٍ طبيعيٍّ حزاماً موالياً للنظام، وصولاً إلى الريف الشرقيّ لمدينة سلمية التابعة لمحافظة حماه، والواقعة تحت سيطرة النظام، ففي هذا الحزام تتواجد عناصر شيعيّة من عدة كتائب، ضمن الحواجز العسكرية، والتي مهمّتها منع تقدم "داعش" في هذه المنطقة. (تقع هذه القرى على خطِّ جبهة مع "داعش"). لكن غالبية القوات العسكريّة هناك هي من اللجان الشعبيّة، مع ملاحظة وجود عددٍ من عناصر شيعيّة أجنبية من خارج سوريا.

ففي الهجوم الذي شنّه "داعش" على حواجز إثرية والشيخ هلال، في الريف الشرقيّ من مدينة السلمية، في 20 /3/ 2015، وجدنا من بين أسماء القتلى "حاج أكبر إيراني"، وذلك على الصفحات المؤيدة للنظام في مدينة سلمية. وهو ما يتفق مع المعلومات التي حصلنا عليها من ناشطين داخل مدينة سلمية.

وأوردت بعض التقارير، أن الهجوم الكبير الذي قام به "داعش"، في 20 /3/ 2015 (والذي أدّى إلى مقتل ما يربو على 73 شخصاً أغلبيتهم من الدفاع الوطني والجيش) تمَّ الردُّ عليه من قبل الجيش بمساندةٍ من "لواء فاطميّين" الشيعيّ، والذي يشكل الشيعة الأفغان قوامه، وهو ما لم نتمكن من التأكد منه(99).

ولكن المعلومات الأكيدة، تفيد بتشكيل لواءٍ شيعيٍّ جديد، في الريفين الحموي والحمصي الشرقيّين، اسمه: قوات الرضا.

98- لا تبعد القصير عن الحدود اللبنانية أكثر من 11 كم فقط، وهذا أحد أسباب الدخول العلني والقوي لحزب الله إليها.

99- موقع مراسل سوري، 2015/3/22 http://cutt.us/lJK2

وهذا اللواء يتشكل من 20% من مقاتلين أفغان وإيرانيّين، ومن تبقّى من شيعةٍ سوريّين، ينتمون إلى القرى الشيعيّة الحمصيّة المذكورة، إضافة إلى من يتشيّع (يعتنق المذهب الاثني عشري) من سكان مدينة سلمية (الذين يدينون بأغلبيّتهم بالإسماعيليّة) أو من العلويّين والبدو الذين يقطنون القرى في الريف الشرقيِّ لمدينة سلمية بشكل رئيسي.

أما مهمّة هذا اللواء، فهي حماية الحواجز العشرين أو أكثر، في طول الريف الشرقيّ للمنطقة الوسطى، والذي يشكّل خطَّ الجبهة مع داعش كما قلنا. وتشمل هذه الحواجز التي يجهز النظام لتسليمها للواء الرضا: مخرم الفوقاني ومخرم التحتاني وأم العمد (وهي قرى في الريف الشرقيّ لحمص)، وبري الشرقي[100]، وصولاً إلى قرية نوى في الريف الحموي الشرقي، والتي تقع شمال مدينة سلمية بـ 18 كم تقريباً، وشرق حماه ب 20 كم. وتذكر المصادر أن هذه القوات شاركت في مساندة قوات النظام في غير مكان، في حلب وفي القلمون ودرعا والغوطة الشرقية والغربية.

تشكل هذه الكتائب في المنطقة الوسطى، نوعاً من الدعم أو البديل للجيش، كحزامٍ في وجه داعش، علماً أن هذه المنطقة لا تشهد معاركَ عنيفةً، باستثناء الهجمات الأخيرة لتنظيم "داعش" على حقل شاعر، والريف التابع لسلمية (محافظة حماة) في آذار من 2015، (آخرها كان مجزرةً بحقِّ المدنيّين راح ضحيتها 45 مدنياً من قرية المبعوجة في 31/ 3/ 2015) والتي تناولها الإعلام السوري والغربي بشكل واسع[101]. لكن بعد بدء هجوم داعش على مدينة تدمر نتوقع أن ترتفع حرارة هذه الجبهة الشرقيّة، وربما بشكلٍ كبيرٍ، وفي حال حدوث ذلك، سنختبر العلاقة الجديدة التي يشكل طرفيها داعش من جهة، والميليشيا الشيعيّة وقواتُ النظام من جهةٍ أخرى، ونتوقع أن تحمل لنا معلومات جديدة تكشف آلية عمل وعلاقة الميليشيا الشيعيّة مع قوات النظام بشكلٍ أساسيٍّ؛ فهذه المعركة مع داعش، إن حصلت، ستكون المعركة الطويلة الأولى بين الطرفين.

أما في داخل ومحيط مدينة سلمية القريب، والذي بات محاصراً أيضاً بكتائب إسلاميّة متشدّدة، تتواجد كتيبةٌ تابعةٌ للحرس الثوري الإيراني وبقيادته أطلق عليهم السكان تسمية "الزرازير" في

100- قرية في الريف الشرقي لسلمية، وتوجد فيها كتيبة مدفعية، وتشكل خط جبهة مع داعش التي لا تبعد عنها أكثر من 8 كم تقريباً.

101- مثلاً هناك مقالة في النيويورك تايمز، 1/4/ 2015 وفيها يتم اتهام النظام بعدم التحرك لحماية القرية، ويذكر فيها كذلك طلب عدد من سكان السلمية من الأسد أن يرسل إليهم جيشاً لحماية المدينة من داعش، فيكون جوابه: هناك 24 ألفا مطلوبون للاحتياط من أبناء المدينة دعهم يلتحقون بالجيش. anna barnard & hwaida , Isis seizes new territory in deadly attacks in Syria, saad , 2015/4/1 http://cutt.us/GN4R

بداية ظهورهم لتفريقهم عن مقاتلي حزب الله اللبناني الذين ظهروا في المدينة في الفترة نفسها في بداية عام 2013. وهو توصيفٌ باللهجة السلمونية للنقش الناعم على لباسهم العسكري. وحسب الناشط "جورج السلموني"، تتشكل الكتيبة من ضباطٍ من الحرس الثوري الإيراني وعناصر يتمّ اختيارهم من أبناء القرى المحيطة بمدينة سلمية من العلويّين أو السنّة البدو، (أكثر البدو السنة المنتسبين لها، هم من قبيلة وزير الدفاع فهد جاسم الفريج)، وكذلك ينتسب إليها بعض الشبان من داخل مدينة سلمية من السنّة والإسماعيليّين، وقد أكد الشاهد المذكور تشيّعهم إلا أننا لم نستطع التيقن عبر شهودنا الآخرين من حجم هذا التشيّع بصفوف الكتيبة. وتشارك الكتيبة في حماية الحواجز ومحيط المدينة.

في محافظة حماه، وفي الريف الشمالي لها، كان للميليشيا الشيعيّة دورٌ كبيرٌ، في معارك بلدة مورك[102]، التي بدأت من شهر شباط في عام 2014 وحتى السيطرة عليها من قبل النظام بعد 9 أشهر من هذه المعارك، حيث ذكرت عدة تقارير صحفية، وناشطون، مشاركة عناصر لحزب الله اللبناني في هذه المعارك، إضافة إلى مشاركةٍ مباشرة لجنود وضباط من الحرس الثوريّ الإيرانيّ، حيث نعت إيران الجنرال "عبد الله إسكندري" في مورك[103].

وبهذا يشكل التواجد السكانيّ الشيعيّ في المنطقة الوسطى، ولاسيّما حول مدينة حمص، ميزةً تسهّل تمترس الميليشيا الشيعيّة. وكما هو الحال في المنطقة الشمالية، لا ينفرد فصيلٌ شيعيٌّ معيّن في هذه المنطقة، بل هناك تعددٌ في الفصائل، منها ما هو من أبناء المنطقة، ومنها ما هو أجنبيٌّ. وتتنوع المهام العسكريّة لهذه الميليشيا في المنطقة الوسطى، ما بين الاشتباك المباشر وعمليات السيطرة مثل معارك مورك الدامية، وبين عمليات تأمين الحواجز، وضبط الأمن داخل المدن.

ومن العلامات الهامّة التي توحي بالنفوذ الذي تمتلكه هذه الميليشيا، هو ما يسمّى بلغة مقاتلي النظام "مناطق أصدقاء"، حيث يمنع دخول أو اقتراب عناصر النظام منها تحت طائلة القتل أو القنص، مثلاً سيطرة حزب الله على كلية المحاسبة التابعة للجيش في مدينة مصياف، ويمنع اقتراب أيِّ مواطنٍ حتى مسافة 1 كم منها، تحت طائلة القتل الفوري.

102- تقع مورك بين حماه وإدلب، وتعتبر منطقة إستراتيجية، بسبب وقوعها على الخط الدولي السريع الذي يربط حماه بمدينة حلب، وهو طريق إمداد أساسي لمعسكرات النظام في الحامدية ووادي الضيف –قبل سيطرة جبهة النصرة عليها –ومعسكرات خان شيخون.

103 - معركة مورك أهم معارك الثوار منذ بداية 2014، موقع حلب نيوز، http://halabnews.com/news/57081

د. المنطقة الجنوبية

يوجد في محافظة درعا نسبةٌ قليلةٌ من الشيعة السوريين، ويتركزون بشكلٍ أساسيٍّ في منطقة بصرى الشام، حيث تمّ تسليحهم ودعمهم بقوة، أسوةً بباقي المناطق الشيعيّة السورية الأخرى.

شارك حزب الله بوضوح في معارك النظام في محافظة درعا، إضافة إلى كتائب شيعيّة أخرى. إلى أن تمّ تشكيل "لواء فاطميّين" من عناصر شيعيّة أفغانية، ويبلغ تعداده 5000 مقاتلٍ أفغانيّ. وقد قتل زعيمه الأفغاني علي رضا توسلي في المعارك، في أول آذار 2015، وهو المعروف بأنه ذراع قاسم سليماني في المنطقة[104].

ويشير بعض الناشطين المعارضين، إلى أن قاسم سليماني، والميليشيا الشيعية في درعا، ولاسيّما "لواء فاطميّين"، يمكن اعتبارهم أصحاب الكلمة الأخيرة في هذه المنطقة، أي إن نفوذهم أقوى من النظام.

وهناك العديد من الأسباب التي تجعل إيران والميليشيا الشيعية، تضع ثقلها الكبير والواضح في هذه المنطقة، منها ما يتعلق بالخوف من وصول المعارضة المسلحة إلى جنوب دمشق، وهذا في حال حصوله سيجعل وضع دمشق العسكريّ سيئاً بالنسبة للنظام. أو لأمورٍ سياسيّةٍ أخرى تتعلق بضرب الجيش الحر؛ إذ تعتبر هذه المنطقة هي آخر معاقل الجيش الحر، حيث يملك وزناً عسكرياً، بعيداً –نوعاً ما– عن الكتائب الإسلامية المتشددة مثل جبهة النصرة، التي لم تشارك في العمليات العسكرية ضد النظام في منطقة مثلث الموت، وفي جبهات درعا إلا بحدود 20 إلى 30 مقاتلاً فقط في كل جبهة، كما تشير بعض التقارير[105].

منطقة مثلث الموت وهي المنطقة الأهم إستراتيجياً والتي تشير إلى المثلث: ريف دمشق وريف درعا والقنيطرة، وتصل بين محافظة ريف دمشق شمالاً، ودرعا شرقاً وجنوباً، والقنيطرة غرباً وجنوباً بمساحة 7 كم تقريباً. يظهر فيها دور الحرس الثوري الإيراني، وحزب الله وغيره من

104- تناولت الخبر الكثير من الوسائل الإعلامية منها (cnn) العربية: http://cutt.us/pNML

105- حزب الله يقود معركة إنهاء الجيش الحر بريف درعا، ثائر غندور، العربي الجديد، 2015/2/14، http://cutt.us/nHJud

الميليشيا الشيعيّة بشكلٍ كبير، ومن الأدلة على المشاركة الفاعلة للحرس الثوري الإيرانيّ، أسر جثة العقيد عباس عبد إلهي، من مرتبات الحرس الثوري، في شباط 2015[106].

وهكذا نرى أن الميليشيا الشيعية تشارك وحدات الجيش النظامي، و(الدفاع الوطني) في العمليات العسكريّة، أو تنفرد بأدائها لهذه العمليات (كحالة حزب الله في القصير)؛ وتمتد مشاركتها، على المناطق السورية كلّها التي تتواجد فيها قوات النظام السوريّ. إلا أن دورها يصبح، بالتوازي مع ضعف قوة النظام، العامل الحاسم في عدم هزيمة النظام؛ وهو ما يجعلها، مع مرور الوقت، تقوم بدورٍ وصائيٍّ عليه. والأمثلة في هذا الصدد كثيرةٌ منها ما تردد عن إقدام ضباطٍ إيرانيين، في "مثلث الموت"، المنطقة الواقعة بين درعا والقنيطرة وريف دمشق، على إعدام 13 من عناصر النظام من بينهم ضباطٌ، بتهمة الخيانة[107].

وتؤدي هذه الميليشيا، جميع الأدوار العسكريّة التي تقوم بها قوات النظام السوريّ، من القتال المباشر، إلى عمليات حماية الحواجز، أو عمليات التمركز خلف قوات النخبة التي تقوم بالاختراق، وذلك في حال كون عناصرها غير مدربين كفاية، وتأمين الطرق وهي عملياتٌ أقلُّ خطراً أو أقل مواجهةً عسكريّة باستثناءاتٍ قليلة – كما رأينا في الريف الشرقي لحمص وسلمية، وفي دورها في إمساك مدينة حلب في الداخل– وقد تشكّل في بعض المناطق قوة دعمٍ لنفوذ الشبيحة، كما هو الحال في داخل مدينة سلمية.

معظم الأسلحة التي تمتلكها، بنادق أم 16 وكلاشنيكوف، وبنادق قناصة متطوّرة، إضافة إلى صواريخ أرض أرض مثل بركان وزلزال، ورشاشات وقذائف أر بي جي، ومناظير ليلية، ودوشكا، ومدافع فوزديكا. في حين لا توجد تقارير تفيد باعتماد هذه الميليشيا على العمليات الانتحارية، باستثناء، حالة حصار لـ 20 عنصراً في الغوطة الشرقية، فقام أحدهم بتفجير نفسه لفك الحصار[108].

فهي إذن تمارس أعمالاً موازيةً للدفاع الوطني، ويمتاز عنها الجيش باستخدامه للأسلحة الثقيلة والطيران والصواريخ، في حين أنها تستلم قيادة العمليات العسكريّة، كما ورد في الكثير من

106- ثائر غندور، عباس عبد إلهي إيراني يقود قوات الأسد، العربي الجديد، 2015/2/26 http://cutt.us/d5JKp

107- عدنان علي، سوريا "لواء فاطميّين" جديد معركة الجنوب، العربي الجديد، 2015/2/14 http://cutt.us/uLzeP

108- كلنا شركاء، مقال منشور في 2013/12/19 http://cutt.us/NPjAf

الشهادات التي حصلنا عليها من تقاريرَ إعلاميةٍ ومقابلات. إضافة إلى أنها تعتبر "نظيفة" أخلاقياً تجاه الشريحة المؤيدة، فلا يسجل عليها في مناطق النظام، عمليات خطف وسرقة ورشوة وتهديد، في حين تعتبر هذه العمليات إحدى سمات الدفاع الوطني، حتى أصبحت ظاهرةً مقلقةً في بعض المناطق مثل مصياف.

إلا أن هذه السمة الأخلاقية الناجمة غالباً عن خضوع هذه الميليشيات إلى قيادة مركزية تتضمن المحاسبة، تتجاور مع قيام هذه الميليشيات نفسها بارتكاب المجازر الوحشية لإثارة الهلع في صفوف المعارضين؛ واستطاعت الشبكة السورية لحقوق الإنسان توثيق العديد منها، ويقدر عدد الضحايا في هذه المجازر بـ 806 ضحية[109].

كذلك نلحظ أنه لا يوجد كتيبةٌ معينةٌ تتواجد في منطقةٍ واحدة، بل هناك اختلاطٌ بين هذه الكتائب على كثرتها. فحزب الله متواجدٌ من الجنوب إلى الشمال، مع نقاط تمركز كثيفة طبعاً قرب الحدود اللبنانية، وكذلك "لواء فاطميّين" الأفغاني يمتد من نقطته المركزية في الجنوب إلى الشمال السوري، وهذا الامتداد يساعده الوجود الشيعيّ السوريّ السكانيّ على طول الخط من الجنوب إلى الشمال؛ فعلى قلة عدد الشيعة في سوريا إلا أنهم ينتشرون في مناطق عديدة في سوريا، وهذه أحد الأسباب التي يمكن أن نضيفها إلى نقاط قوة الأسد، والتي مكنته من اعتماد إستراتيجية "جيش في كل زاوية" كما سمّاها الباحث كريستوفر كوزاك[110]؛ بحيث يوهم الغرب أنه يسيطر على سوريا بشكل شبه كامل، ممّا يحقق له مكاسبَ سياسيّة أكثر بكثير من مكاسب عسكريّة، فمعظم القطع المتناثرة هنا وهناك قد تسبب له خسائر قاسية كما حصل في الفرقة 17 في الرقة، التي أبيدت على يد "داعش". لكن يبدو الآن أن النظام يعتمد إستراتيجيةً جديدةً تقوم على تقليص مساحة المواجهة وتخفيف التداخلات العسكرية مع خصومه العسكريين. أي تقليص مساحة السيطرة لصالح تمتين الحماية من جهة وتخفيف الخسائر من جهةٍ أخرى، مفضلاً المكسب العسكريّ هذا على المكسب السياسيّ، معتمداً فيما يبدو على المكاسب السياسية التي تأتيه مجاناً من تطرف وتخلف ولا عقلانية داعش والنصرة.

109- العربية نت، فيديو ضمن سلسلة صناعة الموت في تاريخ 2015/2/18 http://cutt.us/p5vv1

110- An army in all corners مرجع سابق

الفصل الرابع: علاقة الميليشيا الشيعيّة مع النظام والمجتمع السوريّ



إعلان للحرس الجمهوري عن تشكيل ميليشيا طوعية باسم "لواء درع الساحل" في الساحل السوري ودعوة للتطوّع فيه

على الرغم من تشابك هذه العلاقات في الواقع فقد قمنا بفرزها على مستويين (النظام، والمجتمع) لخدمة البحث. وقمنا في كلّ قسمٍ بالإضاءة على علاقة هذه الميليشيا بكلٍّ من المكونات الاجتماعية، والمؤسسات (الجيش وميليشيا الدفاع الوطني، وغيرها).

بخلاف الخطاب الطائفي الذي يحاول أصحابه قصر الموالاة على العلويين وحدهم، وجدنا أن هناك موالين للنظام من كلّ الانتماءات الطبقية والمناطقية والإثنية والطائفية. إلا أن تنامي الصراع الطائفي، كان نتيجة إستراتيجية النظام السوريّ التي ارتكزت على إثارة الهواجس الطائفية قبل أن يستخدمها صراحة في حربه على الثورة السورية، وإن الدور المتنامي للميليشيا الشيعية، وقوى الإسلام السني الراديكالي في الجهة المقابلة، أنتج مفاعيل مختلفة في كلّ بيئة من هذه البيئات. وكوننا نبحث في علاقة، وأثر، ميليشيا طائفية على مجتمع تحرص على تحفيزه طائفياً، وتنجح بذلك لأسباب سنوردها في الخاتمة، وجدنا أنفسنا ندرس في تفاعل السوريين معها، وأثرها عليهم، بناء على الدين والمذهب، على ما في ذلك من أخطار. فنحن ندرك أن كلامنا عن العلويين مثلاً يتضمن مصادرة على الواقع تلزم كلَّ علويٍّ (وإن كان افتراضياً) أن يتعرف على نفسه كعلويٍّ، غير أن تمدد التصور الطائفي للصراع في سوريا يتيح لنا، وربما يجبرنا، على أخذ خطوط الانقسام الطائفية والمذهبية بعين الاعتبار، ولاسيما أثناء دراسة تأثير ميليشيات طائفية

(كالميليشيات الشيعية التي ندرسها) على المجتمع الذي تنشط فيه ليس فقط عسكرياً، بل سياسياً ودعوياً في كثير من الأحيان.

أولاً– على مستوى المجتمع السوري:

السنّة[111]

حين نتحدث عن السنّة فإننا نتحدث عن قطاعٍ اجتماعيٍّ واسعٍ يتمُّ الحديث عنه كطائفةٍ دون أن يكونها بالأصل، وهذا ما يجعلها بيئةً سهلة للدعوات المذهبية إن كان بالإقناع أو بالإغراء.

ونشير إلى أن عملية تطييف السنة ليست بالأمر السهل، نظراً إلى أنها الكتلة السكانية الأكبر، الأمر الذي منع سابقاً من تعميم عصبية مذهبية غالباً ما يكون الشعور الأقلوي هو بيئتها الأنسب. مع ملاحظتنا بأن هذا الاسترخاء المذهبي لدى عموم الوسط السني السوري هو أحد الأسباب التي تقف خلف النزعة التطرفية لـ"نويّات صلبة" في وسطها، كردٍّ عدائيٍّ على إهمال الأغلبية لأطروحاتها.

الموضوع السنّيّ الشيعيّ في سورية قبل الثورة

لفترةٍ طويلةٍ بدت إيران، في أعين الكثير من "الوسط السني"، بعيدةً وغامضة، ومنذ استولى الملالي على الحكم معمّمةً بأسود غير مطمئن. بينما، مع الوقت، بدا أن "حزب الله" اللبنانيّ يؤدي دورَ سفير فوق العادة للشيعة في الأوساط السنّية. يبرر من طلبنا شهاداتهم تصاعد شعبية الحزب في الشارع العربيّ والإسلاميّ ببطء وثبات منذ تأسيسه حتى ما قبل الثورة السورية بأنه نتيجة: عدائه المسلّح والمؤثر لإسرائيل وراعيها الغربي، ولطالما كان هذا سرَّ الشعبية لدى هذا الشارع؛ وتجنّبه الانحياز الطائفيّ في خطابه العام الذي وصلهم؛ ونجاحه في بناء صورةٍ عن الحركة الإسلامية التي تستطيع تنظيم صفوف أعضائها وجمهورها بدقةٍ وفاعليةٍ وتكامل.

وإذ تأثر كثيرٌ من العرب والمسلمين السنّة بهذه المواصفات لحزب الله، إلا أن التأثر بين السوريين كان أكبر. إذ إن لبنان كان واحداً من المواضع التي يتفق حولها القسم الأكبر من الرأي

111 ـ يتناول هذا القسم "العرب السنّة"، شاملاً معهم التركمان، بقدرٍ من التعميم. ودون أن يشمل الأكراد الذين لهم سياقهم الخاصّ. ويهتمّ بموقف السنّة السوريين من الشيعة الاثني عشرية، لا من العلويين بوصفهم شيعة، فقد كانت الطائفية التمييزية والسياسية فاعلةً بكثافة في العلاقة العلوية السنّية في سوريا. وكان لها بؤر انتشار وحواضن مختلفة.

العام السوريّ مع رأي نظامه؛ وحسب من اطلعنا على آرائهم كان ذلك بجانب منه استخفافاً بفريق 14 آذار، واحتقاراً لقيمه الليبرالية وتجلياتها العامة والسلوكية، لصالح خشونة/ صلابة ومبدئية "المجاهدين" في قانا أو بنت جبيل.

لوهلةٍ، بدا وكأن سورية خلت من أية مشاعر طائفية سلبية تجاه الشيعة حينذاك، أو بدا أن حزب الله حزبٌ إسلاميٌّ عامٌّ لا تعني شيعيته شيئاً. ولكن فيما عدا هذا التيار الكاسح، الذي وجد ذروته خلال العقد الأول من الألفية الجديدة، المتضمّن حرب تموز 2006 والمتوازي مع حكم بشار الأسد للبلاد، ووقوعه –شخصياً– حسب رأي نجده سائداً لدى محاورينا، أسير جاذبية الحزب، كانت الهوية المذهبية السنّية تتمركز في نوىً صلبةٍ وأجواء محصورةٍ ولكنها كثيفةٌ ومستعدة للانقضاض، عندما يحين الوقت المناسب و"يصحو" السوريون، حسب قناعتهم، من تأثير كاريزما نصر الله.

ويمكن لنا رصد هذه البؤر، التي ستنفجر بالفعل في الوقت "المناسب" بعد الثورة السورية والتدخّل الإيراني والشيعي الميليشويّ ضدّها، فيما يلي:

– السلفية الجهادية: والتي ظلّ من خلاياها النائمة أو المتأثرين بها القليل جداً خارج السجون، بينما تركّز وجودها في سجن صيدنايا العسكريّ، الذي ستفتح أبوابه عام 2011 وتحتلّ، بتدرّجٍ متسارعٍ، المشهد الثوريّ السوريّ. ولم ينطلق السلفيون الجهاديون، في موقفهم من الشيعة، من الثوابت السلفية أو من الدراسة في بعض الجامعات الإسلامية السعودية فحسب، بل من تجربتهم الفعلية الوحيدة في ممارسة "الجهاد" في العراق، حيث كان للقوى والحاضنة الشيعية دورٌ كبيرٌ في التمهيد للتدخل الأمريكي ثم التعاون معه، وحيث اندغمت الطبعة الزرقاوية لتنظيم القاعدة مع سيلٍ من الدماء المسفوكة طائفياً.

– السلفية التقليدية: وموقفها من الشيعة "تقليديٌّ" أيضاً، لا مهادنة فيه. وإن كان التيار السلفي داخل سورية قبل الثورة ضعيفاً للغاية، لأسبابٍ تتعلق بطبيعة ما يسمّى بـ"الإسلام الشامي" أولاً، ونتيجة الملاحقة الأمنية التي رأت أن الفرق بين السلفية العلمية وتلك الجهادية لا يحمل على الاطمئنان؛ فإن أهم من سيبرز أثرهم لاحقاً من السلفيين التقليديين هم أولئك الذين كانوا مقيمين في إحدى دول الخليج العربيّ، وممنوعين –غالباً– من الدخول إلى بلدهم سورية. من

هؤلاء بعض بقايا غير منتظمةٍ ولا رسميّة من جماعة الإخوان المسلمين السوريين مالت إلى السلفية، ومنهم سلفيون "أصليون". لكن الأهم أنهم كانوا أوّل من سارع، بعد أشهرٍ من اندلاع الثورة، وبعد أن تعدّت احتياجاتها ما كان يستطيع شبّان التنسيقيات، من ذوي الميول الليبرالية غالباً، تأمينه؛ إلى التدخّل الفاعل، إعلامياً باستخدام علاقاتهم لدى بعض القنوات الشعبية السنّية، وإغاثياً، وتجهيزاً للمشافي الميدانية الناشئة، وتسليحاً للكتائب الوليدة. لقد شكّل هؤلاء السلفيون السوريون، من مقيمي الدول الخليجية وأصحاب الصلات فيها، الصورة الأولى للداعم، المتمثلة بهم كأشخاص مع ما استطاعوا تأمينه من تبرّعاتٍ سخيةٍ.

– توترات شيعية سنّية موضعية: كالتوتّر بين نبّل والزهراء الشيعيّتين في ريف حلب وجوارهما السنّي، وكفريّا والفوعة بريف إدلب وجوارهما السنّي كذلك. والحقّ أن أصل هذا التوتر لم يكن مذهبياً فيما يبدو، بقدر ما كان تنافساً محلياً على بعض الموارد المشتركة القليلة، وتفاخراً وتطاولاً لا تكاد تعدمه الأرياف السورية جميعاً، يأتي الخلاف المذهبيّ هنا ليصعّده ويرفعه إلى سوية "الهوية".

– دمشق "الأموية": رغم أن معظم الدمشقيين انفعلوا بحرب إسرائيل–حزب الله في تموز 2006 لصالح الأخير، وانخرط قسمٌ منهم في نشاطات تأمين السكن والاحتياجات للنازحين اللبنانيين إلى العاصمة السورية، وقتها؛ إلا أن حساسية دمشق –الأموية ... تجاه الشيعة أعمق بكثيرٍ من أن يؤثر فيها انسجامٌ عابر (بالنسبة إلى عاصمة كدمشق، يمكن أن نعدّ حتى العقد من السنين، "عبوراً" بكلّ سهولة). كان الدمشقيون يعجبون بخطابات حسن نصر الله، ويتجمّعون حولها في المقاهي؛ ولكنهم كانوا يرقبون بعينٍ قلقةٍ واستنكارٍ مكتومٍ مسيرات الزوّار الشيعة من إيران وباكستان وسواها، تحتلّ سوق الحميدية متّجهة نحو الجامع الأمويّ والسيدة رقية، بالأمارات والشعارات الطائفية الصادحة. ومن بين الدمشقيين الأكثر صرامةً من كان يحذّر حتى من نصر الله، دون أن يجد له جمهوراً متفاعلاً.

– سنّية "الشوايا": والمقصود هنا الأرياف السنّية لدير الزور والرقة وحلب وحماة... والتي تختلط فيها الميول الصدّامية، مع التعاطف مع الخلطة المتعدّدة التي صارت إليها ما تسمّى بـ"المقاومة العراقية" من عناصرَ بعثيّةٍ ملطّفة وعشائرية وعروبية وإسلامية هوياتية وسنيّة هوياتية وسلفية جهادية، مع التديّن السلفي الذي بات يحطّ رحاله في هذه الأرياف والمدن الصغيرة.

- أفرادٌ ومجموعاتٌ صغرى متناثرة، تحمل موقفاً سلبياً من الشيعة لسببٍ أو لآخر، ولا تجد لها مستجيباً ضمن الملعب الصاخب الذي يسدّد فيه حزب الله أهدافه الإعلامية في المرمى السوريّ والعربي.

موقف السنّة من الشيعة بعد الثورة

لم يتأخر السؤال عن الموقف من "العلوية" إطلاقاً عند اندلاع الثورة، نتيجة الواقع الموضوعيّ لطبيعة السلطة وتداخلها الكثيف بالطائفة. أما الموقف من الشيعة فقد تأخر حتى استُكملت أسبابه الموضوعية: الموقف الإيرانيّ المؤيّد للنظام بشكلٍ متصاعدٍ؛ انخراط المدن الريفية الشيعية والأحياء الشيعية القليلة في بعض المدن الكبيرة (كما في دمشق) في قمع جوارها "السنّي" الثائر وتكشّفها عن وجه حليفٍ "طبيعيٍّ" للسلطة بعد طول تجاورٍ أو عدم تمييز؛ وأخيراً تدخّل حزب الله مباشرةً في المعارك دعماً للنظام، واستجلاب ميليشيات شيعية مختلفة.

وبناءً على ذلك، يمكن أن نتلمّس مواقف السنّة السوريين من الشيعة وإيران بالاستناد إلى مواقفهم المختلفة من النظام بالأصل، منذ أن اندلعت الثورة. وهي، كما هو معروفٌ، المعارضة والتأييد والرمادية:

- المعارضون: والمقصود هنا جمهور الثورة ومقاتلوها وناشطوها وأبناء مناطقها المحرّرة، بما فيها ما سيطرت داعش عليه لاحقاً. وهؤلاء، في الأصل، جمهورٌ محبٌّ لنصر الله ومعجبٌ بـ"رجولة" مقاتليه ضد إسرائيل العدوّة محل الكراهية التقليدية سورياً. ولكنهم، في الوقت نفسه، أقرب إلى الأرضية الريفية السنّية المعادية لإيران عروبياً وللشيعة سنّياً. وإن كانت هذه التركيبة هي الأكثر شيوعاً في جغرافية سيطرة الثورة السورية، فمما لا شك فيه أن لها مؤيدين وأنصاراً متحمّسين في كلّ أنحاء البلاد وبيئاتها. وإذا كان المتن العريض لجمهور الثورة هو من النمط الأول، ممن شعر بـ"طعنة الغدر" من قبل حزب الله واستنجد بمن يجدهم حسب ايديولوجيته "إخوانه السنّة"، من العرب وسواهم، لردّ عاديتها؛ فإن مستوياتٍ أرفع من المعارضة، أو مختلفةً من حيث التكوين، تعتني بالأمر من زاويته الإيرانية والسياسية أكثر.

– المؤيّدون: وهم، في الأصل، جمهورٌ لحزب الله وأمينه العام، وإن كانوا لا يشعرون عند الحديث عنهما وكأنهم في منازلهم؛ كنتيجةٍ منطقيّةٍ لكونه حزباً يقتصر على الشيعة[112]. والحقّ أن المؤيّدين السنّة تورّطوا في تأييد بشار الأسد، نتيجة مصالح مباشرة وتورّطٍ مهنيّ في أجهزة الحكم أو الأمن أو شراكتها، في أحيان قليلة، أو نتيجة تفضيل "الاستقرار" في مواجهة "أزمةٍ" لا بدّ أن يتجاوزها النظام كليّ القدرة ويعود إلى محاسبة ومراجعة مواقف الناس أثناءها، عقاباً وإثابةً، كما سبق أن فعل أيام "أحداث الإخوان" في الثمانينيات... فكل شيء مسجّل!

إذاً، تورّط المؤيدون السنّة، وسواهم بالطبع، في تأييد النظام منذ أن كان هذا الموقف لا يتطلّب من صاحبه أكثر من غضّ الطرف عن حوادث متفرّقةٍ و"غير مؤكدة" من قنص المتظاهرين، والخوض في نقاشاتٍ عصبيةٍ مع الوسط الثائر القريب والصديق؛ وحتى بات تأييد النظام، بالتدريج، يعني تأييد استخدام الأسلحة الكيمياوية، والبراميل المتفجّرة والألغام البحرية على المدن والقرى والبلدات... والدعوة إلى تحويلها إلى مزارع للبطاطا بعد الإبادة الصريحة لمن فيها من المسلحين و"حاضنتهم الشعبية"، أي الأهالي.

وبالنظر إلى هذا المسار المتصاعد تورّطاً، بعد أن أضحت العودة شاقةً جداً على النفس و"التاريخ الشخصيّ" أثناء الثورة، ومع تحوّل بقاء النظام إلى مسألة شخصية واقعية ورمزية بالفعل، ومع الانحطاط الأخلاقيّ لتأييد تزايد واتساع ترسانة أسلحة النظام، تصبح الاستعانة بالميليشيات الشيعية أمراً يسيرَ التقبّل، فضلاً عن الحزب اللبنانيّ الحليف والصديق. فإذاً، ورغم كلّ ما سبق، لقد حافظ هؤلاء المؤيدون على الاستخفاف السوريّ الذي كان سائداً ما قبل الثورة بقضايا الاستقطاب السنّة– الشيعة.

– الرماديون: من الصعب وضع حدودٍ فاصلةٍ جادّةٍ ونهائيةٍ وغير نفوذةٍ بين المؤيدين والرماديين، ما دام تفضيل الاستقرار غير منفكٍّ عن المحافظة عليه بالبراميل! ولكن، ربما يصحّ وصف الرماديين كأفضل ما ينطبق عند وصف قسمٍ كبيرٍ من الدمشقيين (الشوام الأصليين) به. لا شكّ أن قسماً من الدمشقيين أيّد الثورة وانخرط فيها، وأن قسماً أقلّ منهم دعا إلى إبادة أهل الغوطة؛ ولكن الجسم الأكبر من أهالي العاصمة الأصليين –إذ عاد معظم المهاجرين إليها، كل

112- عبر أحد أكثر المثقفين دفاعاً عن حزب الله مثل أسعد أبو خليل، وهو علماني من بيئة شيعية، عن المسافة التي تبعد الحزب نتيجة تركيبته الطائفية عمّن يؤيده: أسعد أبو خليل، حزب الله: تجلّياته الطائفيّة، مركز دمشق للدراسات النظرية والحقوق المدنية، http://www.mokarabat.com/s7650.htm

إلى أرومته الطائفية أو المدينية أو الجهوية– لم يشكَّ لحظةً في أن المطالب المرفوعة في المظاهرات محقّةٌ، ولكن نظرته الكلبية تجاه النظام والسياسة والحياة أملت عليه موقف الحياد العمليّ، بانتظار ما ستسفر عنه المعركة التي عرف منذ البداية أنها ستكون داميةً ووحشيةً ومدمّرة، فآثر النجاة بنفسه وبمدينته الأثيرة عن كلّ ما يفعله السوريون الحمقى؛ من علويين وحوارنة وفلاحي الغوطة وشوايا وحماصنة!

يحافظ هؤلاء الرماديون الحقيقيون، الدمشقيون وسواهم، على قدرٍ كبيرٍ من الحسّ السليم بما يجري، ولاسيّما بعد أن عمّ الحقد وتسايلت الدماء. ومن هنا فإنهم يرقبون بغضبٍ مكتومٍ بحرص مشاهد الاحتلال الإيرانيّ للمشهد العامّ في دمشق، وتجنيد "الشبّيحة" من بين أبناء الأحياء الدمشقيّة الشيعيّة، بطريقةٍ لا يرى الأخيرون لها تفسيراً إلا التفسير الطائفيّ البحت والمقصود. ولكنهم لن يفعلوا شيئاً لمقاومتها، سوى الانتظار.

مواقف الشيعة من "أهل السنّة" بعد الثورة

بخلاف أصواتٍ مكبوتةٍ في مجتمعاتها وغير مؤثرة، تصرّف معظم الشيعة السوريين بعد الثورة وفق طريقة خلايا النظام النائمة. فقد استغرق وقتاً حتى تذكّر متظاهرو حيّ الميدان الدمشقيّ أن حارة الجورة، بالغة الصغر في الحيّ، حارة يقطنها الشيعة، ولذلك تولّت المساعدة المحلية لأجهزة الأمن في قمع المظاهرات. تكرّر هذا الموقف كثيراً، في قرىً وبلداتٍ متناثرةٍ هنا وهناك، سلكت، على نحوٍ مفاجئٍ ظاهرياً على الأقلّ، سلوكاً "شيعياً" واضحاً وصريحاً في تأييد النظام وقمع معارضيه بالسلاح، وبحماسٍ وثباتٍ فاقا، في مرّاتٍ كثيرةٍ، عصبية النظام ذاتها، الجهازية (الأمن) والطائفية (العلويين). إذ تكشّف المقاتلين الشيعة غالباً عن حقدٍ طائفيٍّ كتبيٍّ وممنهجٍ وعابر للتاريخ وبارد، فيما كان حقد العلويين من المشاركين في أعمال القمع، على سبيل المثال، حقداً ساخناً أهوجَ، دموياً بالتأكيد، ولكنه قابلٌ في كلّ لحظةٍ للانقلاب إلى عودةٍ ريفيةٍ ساذجة إلى مشهد "سوريا الجميلة" ما قبل قيام الثورة. ومن هنا فإن الشيعة المقاتلين في سورية، سواء كانوا من السوريين أم من سواهم، ظلّوا، منذ أن أسفروا وأسفرت الظروف عن شيعيّتهم، يتعاملون بحذرٍ وامتهانٍ مع السنّيّ الموالي لهم ولمعسكرهم السياسيّ والحربيّ، مع استخدامه بالطبع. وذلك بخلاف الأجهزة المختلفة للنظام، الرسميّة منها وغير الرسميّة، المغرمة بالتركيز على مشاهد المحجّبات في المسيرات المؤيدة للنظام، وباستضافة الدموع المنافقة لأحمد حسّون

مفتي الجمهورية، والراغبة بصدقٍ في تجاهل كلّ ما حصل، والعودة معاً إلى "سوريا الجميلة"، ودون محاسبة أحد.

العلويون

بطلبٍ من الرئيس السابق حافظ الأسد حظي العلويون باعتراف المراجع الشيعية الاثني عشرية في إيران ولبنان، باعتبارهم جزءاً من الطائفة الشيعيّة. وكان ذلك تلبية إلى حاجة حافظ الأسد إلى إثبات إسلامه تماشياً مع متطلبات الدستور السوري. بعد ذلك وجد المذهب الشيعي أن هناك مكاناً يرتاح فيه اسمه سوريا.

في 1981 تأسست جمعية المرتضى على يد جميل الأسد(شقيق حافظ الأسد). ونرجح أنها لم تكن تسعى بشكلٍ رئيسيٍّ إلى التشيّع بل إلى الاقتراب من رجال الدين الشيعة الحاكمين في إيران، أي كانت سياسية بواجهةٍ دينية، إلا أنها حاكت دعواتٍ إصلاحيّةً تدعو للعودة إلى "الأصل الشيعي الاثني عشري"[(113)]، وربما كانت تسعى إلى استيراد الهرمية الدينية الشيعية إلى المذهب العلوي بما يعطي زعيمها، جميل الأسد، وزناً دينياً يستثمره سياسياً.

إلا أن حافظ الأسد حلّ جمعية المرتضى في الشهر الأخير من 1983. وهو ما فُسر من قبل بعض المحللين بسبب مساندة الجمعية لرفعت الأسد ضدَّ أخيه حافظ في وقت مرض هذا الأخير[(114)]، وقد يكون هذا عاملاً، إلا أنه لا يكفي لتفسير الخطوة فهناك أيضاً دورٌ لاحتجاج رجال الدين السنة على الممارسات الاستفزازية للجمعية في قرار حافظ الأسد، وهناك خوف الأخير من دخول الهرمية إلى المذهب العلوي ما يهدد بنشوء ثقلٍ دينيٍّ معادل لثقله السياسيّ. على كلّ حال، المؤكد أنه تمّ حلّ الجمعية بشكل نهائي، وأن هذا القرار وما أعقبه من قرار حلّ سرايا الدفاع (التخلص من مؤسستين طائفيتين في السلطة) هو ما ضمن استمرارية "هادئة" لنظام الأسد حتى آذار 2011.

على صعيدٍ آخر أدى انهيار الاتحاد السوفياتيّ، الظهير الدائم لنظام الأسد، إلى رفع منسوب التحالف مع إيران كنوعٍ من التعويض، وهو ما أسس للخلل في التوازن الدقيق بعلاقة النظام

113- البعث الشيعي في سوريا، مصدر سابق الذكر، ص44.
114- الصراع على السلطة في سوريا الطائفية والاقليمية والعشائرية السياسية، فان دام، مكتبة مدبولي، القاهرة، 01-01-1995.

الخارجية التي كانت مجموعة الأسد الأب نسجتها، الخلل الذي ما فتئ يزداد في حكم الوريث بشار الأسد، وإن عرف فترة توترٍ نتيجة تناقض المصالح بالموضوع العراقي حين سهّلت إيران عملياً اجتياح العراق وإسقاط نظام صدام حسين(115)؛ ليصل الخلل مع اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري، وخروج الجيش السوريّ من لبنان، إلى استعداء السعودية التي حرص الأب دائماً على إبقاء الودّ معها، وإلى تعاظم دور حزب الله في دعم النظام السوري، بعد أن كان النظام السوريّ في عهد الأسد الأب قد قاتل الحزب التابع لإيران في سياق صراعه مع الأخيرة على النفوذ على الطائفة الشيعية في لبنان(116).

ومع إنجازاته كحزب مقاومة وتحرير في لبنان، تحوّل حزب الله اللبناني إلى ملهمٍ عند قطاعاتٍ سوريّةٍ واسعة بدأت النظر لإيران، من منظاره(117). وهو ما يفسر الاهتمام الكبير الذي أولاه النظام السوريّ ما إن بدأت الثورة عليه لإعلان حزب الله، وعلى لسان أمينه العام، موقفاً مؤيداً له ولروايته عن الأحداث.

يتركز الثقل العددي الأكبر للعلويين في اللاذقية وطرطوس وحمص وسهل الغاب. في سياق الصراع المستمرّ منذ أكثر من 4 سنوات، والطابع الطائفيّ الذي راح يغلب عليه، تركّز الوجود العلوي أكثر فأكثر في الساحل بفعل نزوح الأسر العلوية في مختلف مناطق سوريا، ولاسيما في دمشق وحلب إلى الساحل "الأم"، على اعتباره المكان الأكثر أمناً للعلويين، ذلك أن العلويَّ محكومٌ بالموت بصفته المذهبية، بعيداً عن أيّ اعتبارٍ سياسيٍّ أو فكريٍّ، في أماكن سيطرة القوى الإسلامية.

عوامل عديدة تحدّد طبيعة علاقة العلويين بالميليشيات الشيعية، يحتاج الموضوع إلى تناوله من جوانب عدة متباينة في الواقع وليست على خطٍّ اتفاق واحد.

115- مصادر إيرانية تعتبر إلغاء زيارة الرئيس الروسي (من الخبر نفهم أن زيارة الرئيس الروسي هي التي ألغيت) لطهران تعبيراً عن الاستياء من تحوّل في موقف إيران من العراق، الشرق الأوسط، http://archive.aawsat.com/details.asp?article=147289&issueno=8815#.VYm4PPlVikp

116- عبلة مزوزي، العلاقات الإيرانية- السورية في ظل التحولات الدولية الراهنة، رسالة ماجستير، ص16.

117- سجلت دراسة في هذه الفترة ("عملية التشيع في سوريا 1985 – 2006، دراسة اجتماعية – إحصائية"، المجلس الوطني للحقيقة والعدالة والمصالحة في سوريا، 2006) في الملحق الإضافي لجهة المتشيعين السنة، ولاسيما من تشيع منهم بعد الحرب الإسرائيلية صيف 2006 على لبنان، أنهم " تشيعوا حباً بحزب الله وحسن نصر الله ". للاطلاع على ملخصها: http://elaph.com/ElaphWeb/ElaphLiterature/2007/1/202371.htm

1. من الناحية العسكرية، مناطق الساحل ظلّت حتى اليوم وإلى حدٍّ كبيرٍ بعيدةً عن أن تكون ساحة حرب. حدثت في اللاذقية ثلاث معارك محدودة، (باستثناء اشتباكات محدودة والقصف المدفعيّ والجوي شبه اليومي من جانب النظام على مناطق تواجد المسلحين الإسلاميين في جبال اللاذقية) هي معركة الحفة التي استمرّت نحو الشهر في صيف 2012، ومعركة ريف شمال اللاذقية في صيف 2013، حيث دخل مسلحو جبهة النصرة إلى 12 قريةً علوية تشتت أهاليها بين قتيل وأسير ومشرد، ثم استعادها النظام بعد ذلك بنحو أسبوعين، ومعركة كسب في آذار 2014. سوى هذا، يشارك أبناء الساحل في القتال في معارك بعيدة عن الساحل غالباً، ويأتي صدى هذه المعارك إلى الساحل على شكل نعوش تحمل جثامين أبنائهم.

هذا يعني أن الاحتكاك الشعبيّ محدودٌ مع الميليشيات الشيعيّة التي تتواجد بطبيعة الحال في المناطق الساخنة، أو قرب المواقع الدينية الشيعيّة، أي بعيداً عن الساحل. ويقتصر تواجدها في الساحل على مستلزمات عملية التجنيد، ويلاحظ وجود مكاتب شبه علنية لها في الساحل ترفع علم حزب الله وصور أمينه العام حسن نصر الله (مثلاً في اللاذقية في شارع 8 آذار مقابل قيادة الشرطة، وفي طرطوس في شارع الثورة وفي حي العريض والفقاسة)، وهي مكاتب تجنيدٍ مستقلة عن شعبة التجنيد التي كانت مخوّلة رسمياً بالتجنيد من قبل. كما يوجد وكلاء يقومون بعملية التجنيد باستقلاليةٍ عن مؤسسات النظام ولكن بالتفاهم معها.

يفضل كثيرٌ من الشباب الانتساب للقتال تحت قيادة حزب الله لما له من وزنٍ معنويٍّ، إضافة إلى الميزات التي يتمتعون بها من حيث الاهتمام والطعام والتعويض في حال الإصابة أو الموت في المعارك، دون أن يبدو أن هناك شرطَ التشيّع. وقد تأكدنا من هذا الأمر من شهادة مجندين مع حزب الله، أو لنقل تحت رايته، من مدينة طرطوس. يحظى اهتمام حزب الله بعناصره بالمقارنة مع الإهمال الذي يشكو منه الجنود في جيش النظام، سواء من حيث المعاملة أو من حيث الخدمات بما في ذلك ندرة الطعام ونوعيته السيئة. يقول أحد الجنود السوريين وهو يخدم في القلمون، وهو شخصٌ معروفٌ من قبلنا، "إن الضباط يفرزون العناصر الذين يقدمون لهم الرشاوى على المهام السهلة وغير الخطيرة، ويحصل العنصر على الإجازة بالرشوى أيضاً" ويضيف إن الطعام الذي يقدم لهم سيئٌ وغير كافٍ، بسبب السرقات، الأمر الذي جعله وزملاءه يرتجلون حاجزاً على طريق دمشق حمص للحصول على الطعام من السيارات العابرة مستفيدين

من جوٍّ الرعب العام في البلاد. فيما يقدم طعاماً كافياً وبنوعية جيدة لعناصر حزب الله الذين يشتركون بالمهام، حسب قوله. وهناك من يقول إن العقيد سهيل حسن (الملقب بالنمر) يتميز باهتمامه بعناصره ومعاملتهم باحترام ومساواة وتأمين مستلزماتهم وهو ما يجعلهم متفانين في العمل معه وهذا من الأسباب التي تعطيه قيمةً عسكريّةً إضافية.

2. من الناحية السياسية، من الطبيعي أن يرحب العلويون بكلّ من يدعم نظام الأسد الذي يبدو لهم، بعد اندلاع الثورة، بمنزلة الحماية سواء من حكمٍ إسلاميٍّ يهمّشهم، أو من قوى إسلامية متطرفة تستهدف وجودهم كجماعةٍ مذهبية. هناك ترحيبٌ بالموقف السياسيّ لإيران الداعم للنظام. وقد كان لموقف حزب الله في دعم الأسد أثرٌ طيبٌ لدى غالبية العلويين زاد من مكانة الحزب في أذهانهم، ولاسيّما أن مكانة حزب الله اللبناني وأمينه العام كانت عالية سلفاً لدى غالبية العلويين، كما لدى غالبية السنة أيضاً، على خلفية إنجازاته في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، وذلك قبل أن ينخرط في الدفاع عن النظام السوري باعتباره جزءاً من المحور الذي يشكل الحزب رأس حربته.

في كلّ الأحوال، لا يعرف غالبية أهل الساحل من القوى الشيعية الداعمة للنظام سوى حزب الله اللبناني.

3. من الناحية المذهبية، ينفر غالبية العلويين من التشدد الدينيّ عند الشيعة، من موضوع الحجاب إلى موضوع الالتزام بالفروض الدينية ..الخ. هناك جزءٌ صغيرٌ من العلويين يميل نحو الشيعة مذهبياً باعتباره مذهباً ظاهرياً محدد الملامح ويقف نداً للمذهب السنيّ الذي شكّل مصدراً للاضطهاد في تصوّر العلويين. يغري هذا الأمر قلةً من العلويين الذين ينخرطون في التشيّع مذهبياً ويجدون إشباعاً نفسياً ما في دخولهم دائرة الندية المباشرة والعلنية مع المذهب السنيّ، الأمر الذي يقصر عنه المذهب العلويّ الباطنيّ.

من المفيد أن نذكر أنه من فترةٍ طويلةٍ ما قبل الثورة اشتغلت إيران على تقريب المذهب الشيعيّ من الوسط الشعبي في الساحل. أنشأت مركزاً ثقافياً متواضعاً في اللاذقية مع دورات لتعلم اللغة الفارسية، وأنشأت مدرسةً شرعيةً شيعيّة رسميّة في ريف جبلة وهي تابعةٌ لوزارة الأوقاف، كما أنها أنشأت كليةً لتدريس المذهب الشيعيّ ملحقة بجامع "الرسول الأعظم" في اللاذقية الذي يقوم بدورٍ نشط في تقريب المذهب الشيعيّ من أهل الساحل سواء أكانوا من السنة أم من العلويين. كما

كانت تقوم بترتيب رحلاتٍ، دينيةٍ مضموناً سياحيةٍ شكلاً، إلى إيران بشكل دوريٍّ. وحين نقول دينية لا نعني بغرض التشيّع بل بغرض خلق الألفة مع المذهب الشيعي، غير أن كلّ هذه الخطوات لم تكن ذات مردودٍ كبيرٍ على صعيد التشيّع، حيث أعداد المتشيعين ليست كبيرة، حسب كلّ مصادرنا.

من الناحية المذهبية المحضة، صحيح أن هناك من يسمّي العلويين غلاة الشيعة إلا أنه نقلاً عن أحد المطلعين، فإن العلوي المتدين ينظر إلى الشيعيّ على أنه أسوأ من السنيّ مذهبياً، ذلك لأن العلويّ يعتبر أن الشيعيَّ يعرف الحقيقة وينكرها، فيما السنيّ لا يعرفها. فضلاً عن أن العلويّ يعتبر أن الشيعة خانوا الحسين، ومن خان الحسين لا يؤتمن. نضيء على هذه النقطة للقول إن التقارب مع إيران هو تقاربٌ سياسيٌّ أساساً وليس مذهبياً كما يتمُّ تداوله بصورةٍ نمطيّة.

4. هناك مشكلةٌ تتعلّق بدولة إيران، ذلك أن الموقف منها إشكاليٌّ، فهي تدعم النظام وهذا يرضي قسماً كبيراً من العلويّين ويدفعهم لتأييدها. ولكن إيران من جهة أخرى تستولي على السيادة السورية في سياق مساندتها النظام، وهذا ما يجعل كثيراً من العلويّين يعبّرون عن قلقهم (ولاسيّما العسكريون). يمكن للمراقب أن يلمسَ مثلاً عدم الرضى ممّا شاع من أن ضباطاً إيرانيّين يتحكمون بالجيش السوري، ولاسيّما ما شاع مؤخراً عن قيام الضباط الإيرانيين بإعدام ثلاثة عشر ضابطاً سورياً في درعا. وعلى هذه الخلفية جرى تجميد قائد المنطقة الجنوبية العميد جابر إبراهيم ثم تسريحه وهو الآن يهتمُّ بزراعة أرضه في حمص[118]. ويمكن لمس عدم الرضى حين يقوم النظام بمبادلة الأسرى الإيرانيين ويهمل الأسرى السوريّين. كما أن الكثير من العلويين يرفضون المبالغة بالدور الشيعيّ في مواجهة "الإسلاميّين" حيث تنسب قناتا "المنار" و"العالم" انتصارات الجيش السوري إلى حزب الله وفيلق القدس، كما يحتجُّ بعض العلويّين. أحد هؤلاء يكتب على صفحته على الفيسبوك بمناسبة التهليل لزيارة سليماني إلى سهل الغاب: "عيب عليكم أيها المسوفين لسليماني أو لغيره. جيشنا قاتل وهو الذي حمى سوريا ولولاه لما كان سليماني يستطيع زيارة سهل الغاب ولما كانت إيران كلها ولا روسيا ولا كل حلفائنا يستطيعون تقديم أي شيء"، ويعلق أحد هؤلاء على البوست بالقول: "لاتتركوا الأصدقاء يقاسمونكم طعم الانتصار"، فيما يدل

118 شهادة مباشرة من صديق للعميد لم يرغب بذكر اسمه.

على عدم الرضى من الشعور بالهيمنة الإيرانية وبأن إيران تقدم الدعم فعلاً ولكنها تريد قطف الانتصار بيدها ونسبه لنفسها.

بالمقابل، مع تحوّل الصراع من صراع قوى سياسية إلى صراع جماعاتٍ عضوية، تصبح الحماية هي الأولوية التي يتراجع أمامها كلُّ شيء، بما في ذلك الشعور الطائفي إن لم يخيل لطالب الحماية انه هو مصدرها. بمعنى أن الجماعات التي تشعر بالتهديد، كالموالين للنظام السوري في الساحل أو كالدروز في جبل العرب، يمكن أن تقبل الحماية من أيِّ قوةٍ قادرةٍ على الحماية بصرف النظر عن أي اعتبار سياسيٍّ أو دينيٍّ. وعلى هذا الضوء يمكن أن نفهم ميل كثير من أهالي "القرى الموالية"[119] التي وقعت تحت سيطرة الإسلاميين، للقتال تحت راية حزب الله وليس تحت راية الجيش السوري الذي خذلهم وعجز عن حمايتهم. الدافع هنا لا يتعلق بالامتيازات التي يتمتع بها عناصر حزب الله، بل نحن أمام دافعٍ جديدٍ يتعلّق بانضباط الحزب وقدرته العسكرية وقتاليته العالية بما يولد ويحمي ثقة جمهور الموالاة، الذي راح يفضل حزب الله على الجيش النظامي الذي يسمّيه الموالون بالجيش الوطني.



من صفحة موالية تعبير عن الاستياء وعدم الثقة

بالفعل ارتدت الخسائر الأخيرة في إدلب وجسر الشغور وأريحا ضدَّ إيران بشكلٍ كبير في الوسط العلوي، وبدا لأهل الساحل أن إيران تتاجر بهم، وأنها باعت سوريا في صفقة النووي مع أمريكا. يقول أحد العلويين من طرطوس، وهو معلم مدرسة: "سقوط إدلب يدلُّ على أن تركيا تقف مع الإرهابيّين بحزمٍ وصدق أكثر ممّا تقف إيران مع الجيش السوري". يحمل الكلام دلالةً واضحةً ليس فقط على قبول الحماية الخارجية بل وطلبها أيضاً، ويبدو من هذا القول اعترافٌ صريح بعجز الجيش

119- بالإضافة لشهودنا، وجدنا أنه قد تكرر مثل هذا الموقف في صفحات موالية في الساحل على شبكات التواصل الاجتماعية، منها: اشتبرق في القلب، https://www.facebook.com/eshtabrakallasad

السوري لولا إيران. ومن الواضح أن هذا الكلام يتعارض في مغزاه وأبعاده مع كلام البوست الذي استشهدنا به آنفاً.

انعكس هذا موقفاً سلبياً من التشيّع ومن إيران، مع ارتداد قسمٍ كبيرٍ من العلويّين المحبطين وفاقدي الأمل في قدرة النظام على صدِّ تقدّم القوى الإسلامية، إلى الحائط الأخير وهو القبول بالتقسيم كسبيلٍ للحماية. وكان من علامات هذا التحوّل تشكيلُ ما سمّي لواء درع الساحل، الذي يتّضح من اسمه ومن الإعلان عنه، أنه خاصٌّ بحماية منطقة الساحل دون غيره وهي خطوةٌ صريحةٌ على طريق التقسيم.

واضحٌ إذن أن قوى شدٍّ عديدةً تتنازع العلويّين في علاقاتهم مع الميليشيات الشيعيّة في هذا الوضع العصيب الذي يعيشونه وسط صراعٍ متحرّكٍ. عسكرياً يشعرون أن النظام بحاجةٍ لدعم إيران كي يستمرَّ، والنسبة العظمى منهم ترى أن استمراره يعني استمرار الحماية لهم، ولكنهم في الوقت نفسه لا يرحّبون بسيطرةٍ إيرانيّةٍ، فالكثير منهم يبدي تحسّساً من الهيمنة الإيرانية. هذا من الناحية العسكريّة والسياسيّة، أما من الناحية المذهبيّة فعلى الرغم من المساعي المباشرة وغير المباشرة، ورغم المبالغ التي تصرف فإن نسبة التشيّع بين العلويين قليلةٌ جداً، ولا يبدو أن العلويّين قابلون لسعي إيران في ترجمة الدعم العسكريّ للنظام السوري إلى توسّعٍ شيعيّ. يستوقف هنا رأي أحد أبناء الساحل (علمانيّ ويحمل شهادة دكتوراه في الفلسفة) حيث يرى: "أن إيران تراجعت عن نشر التشيّع في الساحل لأنها لن تتمكن من حماية من سيتشيّعون وبالتالي فإنها لا تريد أن تحمل عبئاً أخلاقياً وسياسياً جراء ذلك".

الاستفادة من الدعم الإيراني دون ما يستتبع هذا الدعم من هيمنةٍ إيرانيّةٍ وتبعات مذهبيّة، هذه معادلة غير مستقرة. الراجح أن التطوّر سيكون لصالح الهيمنة الإيرانيّة عن طريق تسلّط الجزء من العلويّين القابل للهيمنة وللتشيّع. هذا يفتح الباب أمام صراعٍ محليٍّ ذي طابعٍ جديد، يجمع القوميّ مع المذهبيّ.

ميدانياً لا يوجد ما يفيد بوجود توترٍ أو رفض للميليشيا الشيعيّة بين العلويين على المستوى القاعدي. ويبدو من خلال هذه الزاوية أن أغلبيّة العلويّين ينظرون بعين الراحة إلى الوجود العسكريِّ للميليشيا الشيعيّة، بداية كظهير للنظام الذي يؤيدون ولكن مع الوقت كحماة لهم.

ولتعقّب هذه العلاقة، حاولنا الحصول على أكبر عددٍ ممكن من المقابلات المفتوحة مع أشخاصٍ علويّين، يقيمون أو كانوا حتى فترة قريبة يقيمون، في المناطق العلوية. وهو ما كان شديد الصعوبة (120).

الشاهد (س) وهو خريجٌ جامعيٌّ علويُّ المنبت، يعيش في إحدى المناطق العلوية في محافظة طرطوس، أكد لنا أنه لا يوجد أيُّ تماسٍ بين المسلّحين الشيعة والعلويّين، حتى إنهم غير موجودين في كلِّ محافظة طرطوس حيث يعيش. لذا لا يمكن الحكم عن طبيعة الاحتكاك المباشر بينهم، وهذا لا يعني أبداً أن العلويّين المقيمين في طرطوس وقراها، ينظرون بعين الراحة إلى التواجد الشيعي. وعبّر الشاهد (س) أن المسافة التي تفصل العلويّين عن السنّة هي ذاتها التي تفصلهم عن الشيعة، وذلك قبل الأحداث السورية، أما بعد الأحداث، وبسبب الخوف أو الذعر من الإسلام الراديكالي، فحتماً أصبحت المسافة مع الشيعي أقرب، باعتباره ضرورياً لحمايتهم من داعش وغيرها، لكن مع هذا لا يزال العلويّون ينظرون بشكلٍ مرتابٍ نحو الشيعة القادمين إلى سوريا. والكلام ذاته أخبرنا به خريجٌ جامعيٌّ آخر يعيش في مناطق العلويين في طرطوس (أ) حيث قال "إن العلويّين لا يحبّون الشيعة" على عكس ما يظن عامة الناس. ولا يوجد في أوساط العلويّين في طرطوس حالة تشيّع إلا بشكلٍ فرديٍّ.

لكن قمنا بأخذ شهادة أخرى لمدرّسٍ غير علويٍّ وغير سنّيٍّ (لا يعرف ما هو مذهبه، فهو من أسرة علمانية!) كان يقوم بالتدريس في إحدى القرى التي تقع في ريف المنطقة الوسطى. القرية يقطنها سكانٌ علويّون وبدوٌ سنّة، أخبرنا المدرس أن القرى العلويّة على طول الطريق حيث تصطفُّ على تخوم البادية، كانت ترفع أعلاماً شيعيّة، مثل العلم الأحمر والأسود المكتوب عليه: لبيك يا حسين، ويا زينب وغير ذلك. وقال لنا إن الانطباع الذي حصل عليه هو ارتياحٌ علويٌّ وتقاربٌ نحو الميليشيا الشيعيّة، ولاسيّما أنهم يشاركونهم القتال ضدَّ الخطر المتمثّل في "داعش" وغيره؛ حيث لاحظ الشاهد انتشار الرايات الشيعيّة، والأحاديث التي يتداولونها معبّرين عن تقاربٍ واضح مع هذه الميليشيا، أما المظاهر الدينيّة مثل الصلاة وغيرها فلم يلحظها لا هو ولا زملاء له.

120- 3 من أصل 4 شهادات طلبوا منا عدم ذكر منطقة وجودهم، طبعاً عدا عن ذكر اسمهم أو حتى حرفٍ من اسمهم، حيث نلحظ مدى الخوف الذي يسيطر حتى الآن، وكذلك من المستحيل أن نصل إلى أي ناشط من الممكن أن يقوم حتى باستطلاع رأي شفوي، وهو ما نحن بحاجة إليه بالحد الأدنى، كي نقدر على ادعاء نتيجة حول العلاقة بين العلويين والميليشيا الشيعية، وهذا الحال مفهوم، إذ إن العاقبة هي الموت أو الموت تحت التعذيب. وهذا كله يشكل محددات ومعيقات للبحث.

رغم مناقضة شهادة المدرس مع الشهادتين (س) و (أ) إلا أنها تأتي ضمن سياق الاختلاف بين العلويّين الذين يقيمون في طرطوس والعلويّين الذين هاجروا من الساحل إلى القرى في المنطقة الوسطى، وإن كنّا لا نملك معلوماتٍ كافيةً عن طبيعة هذا الاختلاف، فإننا نكتفي بالإشارة إليه كفرض. لكن شهادة المدرّس تدلنا على أن سبب التقارب الفعليّ هو تأمين الحماية. ويبقى من المفيد أخذ رأي العلويين وشهادات ممّن يعيش ضمن مدينة حمص وريفها من العلويّين، حيث يكون الاحتكاك العلويُّ الشيعيُّ في أقصاه، إضافة إلى أن العلويّين في حمص، يشكلون كتلةً كبيرة، تتوسط ما بين الساحل باعتباره الأصل، وبين القرى الشرقية التي هي آخر الخطوط العلويّة السكّانية في الخريطة السورية.

أما شهادة "باسل العبد الله" فجاءت في موازاة شهادة المدرس، ففي منطقة مصياف وحماه وصبورة (ريف سلمية الشرقي)، لا توجد حالةُ توترٍ شيعيٍّ علويّ، بل العكس هو الصحيح، إذ يعتبر عامة العلويّين – في منطقة مصياف – أن الميليشيا الشيعية أكثر أخلاقية من الشبيحة والجيش، كما قلنا أعلاه. فهم لا يسرقون ولا يرتشون ويقاتلون عن عقيدة وإيمان، على عكس الشبيحة الذين يتصدرون المشهد من دمشق إلى حلب، لذا يعتبرون الميليشيا بمنزلة المقاتل "الأفضل " من غيره، إضافة إلى أنهم يقدّمون لمن ينتمي إليهم المال والدعم والحماية، في حين لا تقدم قوات الدفاع الوطنيّ الحماية لمن ينتسب إليها، حتى إنه من الممكن أن يتعرّض شخصٌ من الدفاع الوطني للاعتداء من قبل شخصٍ أقوى منه. وهذا ما كان قد حدث أكثر من مرة، منها – وهذه الحادثة قد انتشرت في الإعلام وأكدها باسل العبد الله – أن أحد عناصر الدفاع الوطني، قد قام بضرب مساعد من الأمن في منطقة مصياف، ومن ثم قام بجرّه من شعره، أمام الجميع دون أن يقدر أحدٌ من عناصر الأمن على التدخل. إضافة إلى أن المجرمين السابقين والقوّادين ومنحطي الأخلاق ممن كانوا منبوذين اجتماعياً قد باتوا قادة يتحكمون بالناس، بمجرد انتمائهم للدفاع الوطني، وأصبحت الشبيحة تشكل –وبشكل واضح– إمارات للدعارة وتجارة المخدرات، انتهى كلام الشاهد.

هذه الصورة القاتمة للحامي المفترض، مقابل الخطر القادم من المعارضة التي توسم بالإرهابية سواء أكان " داعش" أم جبهة النصرة أم غيرهما، دفع الناس في المناطق العلويّة إلى التقرّب من

الميليشيا الشيعيّة، حسب الشاهد، ولاسيّما بعد الخسارة الكبيرة في الأرواح التي مني بها المجتمع العلويّ.

وهذا ما نلحظه في شهادة "باسل العبد الله" ذاتها، إذ قال لنا إن موقف "العلويّ" من الميليشيا الشيعيّة يبقى رهناً لمدى انتمائه للهويّة العلويّة، فالشخص المتديّنُ، سينظر إليها رغم كل شيء بنوعٍ من القلق، أما الشخص اللامتديّن فإنه لا يعير اهتماماً كبيراً لعملية التشيّع أو لا.

ومن الأدلة على هذا التعقيد واللاتجانس، ما حدث في إحدى قرى مصياف (طلب منا الشاهد عدم ذكر اسمه واسمها) حيث زادت نسبة التشيّع من قبل العلويّين، ممّا أدى إلى خلق حالة حساسيّةٍ بين السكان وبين الميليشيا الشيعيّة، تمّ احتواؤها لاحقاً، وبسؤالنا عن طبيعة هذه الحساسية، قال لنا الشاهد إنها لم تتطور إلى حالة عنف، لكنها كانت نوعاً من الاحتجاج أو التذمر الواضح.

وهكذا نرى أن العلاقة القاعديّة المتجهة من العلويّين إلى الميليشيا الشيعيّة، غير ثابتة، متنوعة ومتفاوتة، وقد يكون هذا التفاوت كبيراً، بين حالة تشيّع (جميع الشهادات قالت إنها قليلة)، وإظهار الودِّ مثل رفع الرايات الشيعيّة، وبين حالة النفور أو القلق من سياسة الولي الفقيه التي يخشى بعضهم من الغرق فيها.

المسيحيون

انقسم المسيحيون حيال الثورة السورية؛ فقد انحازت الكنائس الرسمية والقسم الأكبر من المسيحيين لمصلحة النظام السوري، بينما شارك "المسيحيّون الآشوريّون والسريان عبر أحزابهم السياسيّة وتنسيقياتهم الثورية وفصائلهم العسكريّة في الحراك العسكريّ مباشرة في منطقة الجزيرة الفراتية بالحسكة، بالإضافة إلى عددٍ كبيرٍ من الناشطين المسيحيّين الذين ما زالوا يعملون في ساحة الثورة إلى الآن، ومنهم من اعتقل أو قتل على يد قوات الأسد، مثل "باسل شحادة" المخرج السينمائي"[121]. بالإضافة لمشاركة شخصيّاتٍ علمانيّةٍ ديمقراطية مسيحيّة المولد تعد من أركان العمل الوطني المعارض مثل الفنان فارس الحلو، وميشيل كيلو، وأكرم البني، وأنور البني،

121- محمد غريبو، المسيحيون والثورة السورية، وكالة مسار برس، https://goo.gl/2QuMA6

وممثل المجلس الوطني السوري في بلجيكا جورج شاشان حيدو، وعضو المكتب التنفيذي في حزب "وعد" ريمون معجون، وغيرهم.

وعلى الرغم من كون أغلبية المسيحيين تنظر بقلق إلى الدعوات المطالبة بالتغيير إن لم تكن علمانيّة صريحة، أسوة بباقي الأقليات المذهبية في سوريا، ورغم أنها قبلت من النظام السوري أنه "حامي الأقليات" وأن تغييره خطرٌ عليها، إلا أنها كانت حذرةً حين انتقل الصراع لطوره العسكريّ من المشاركة في القتال بشكلٍ مميّزٍ لما يمكن أن يجره عليها من تبعات. وبهذا الصدد يمكن عدُّ تمدّد مجموعاتٍ إسلاميّةٍ راديكالية إلى مناطق مسيحية[122] الحدث الذي أجرى تحوّلاً على قناعة الكثير من المسيحيّين باتجاه فكرة "الدفاع عن النفس"، وهو ما استغلّه كلٌّ من سلطة الأسد وحزب الله.

قبل هذا الحدث كان يجري تجنيد مسيحيين عبر جيش النظام، أسوةً بكلّ السوريين، وعبر أحزابٍ علمانيّة، أهمها الحزب القوميّ الاجتماعيّ السوريّ الذي يملك علاقات تعاونٍ وتنسيقٍ مع حزب الله، وعبر ميليشياتٍ تابعةٍ للنظام بمسمّى "الدفاع الوطنيّ" تمتلك علاقاتٍ مع إيران تزداد قوةً مع تراجع قوة سلطة الأسد. وما إن تحوّلت أعدادٌ أكبر من المسيحيين لفكرة الدفاع عن النفس إثر دخول جبهة النصرة لبعض مناطقهم حتى ازداد استعدادهم للتسليح فانضموا للمجموعات المسلحة التابعة لـ"الدفاع الوطني"، وشكّلوا في صيدنايا، حسب شهود من القلمون، لجاناً شعبيةً مسلحة باسم "مريم العدرى" تتبع بآلية الولاء لميليشيا الدفاع الوطنيّ.

ومن هذه المجموعات أيضاً:

قوات الدفاع الوطنيّ – قطاع القصاع[123]؛ وقوات الدفاع الوطنيّ/ قطاع دمشق / باب توما[124] (الصورة على اليسار من صفحتها على "الفيس بوك"[125])، وفيها عناصر من



جنازات لعناصر الدفاع الوطني "باب توما"

122- كتائب مسلحة بينها "النصرة" تدخل بلدة معلولا المسيحية، جريدة الشرق الأوسط، http://archive.aawsat.com/details.asp?section=4&article=752189&issueno=12787#.VWr3W89Viko
123- صفحتها على شبكة التواصل الاجتماعي "الفيس بوك"، https://goo.gl/hrfvgI
124- صفحتها على شبكة التواصل الاجتماعي "الفيس بوك"، https://goo.gl/JN7qaN
125- عن صفحتها على شبكة التواصل الاجتماعي "الفيس بوك"، https://goo.gl/ok4Z0Z

الشيعة حسب شهادة فاروق رفاعي؛ والدفاع الوطنيّ في وادي النصارى، والدفاع الوطنيّ في السقيلبية بريف حماة[126].

ومع الوقت، وضعف المركز التابع لسلطة الأسد، قد تتحوّل المجموعات سابقة الذكر إلى ميليشياتٍ مسيحيّةٍ. وهو المسمّى الذي ورد إعلامياً[127]، وعلى لسان بعض الناشطين في مناطق التماس، تحديداً في القلمون[128]؛ واستنتجنا عبر سؤال شهود موثوقين من المنطقة أن هناك تسرعاً بهذه التسمية بما خصّ منطقتهم، كونها لا تعبر بدقة عن درجة تطوّر المجموعات المسيحيّة التابعة لقوات الدفاع الوطنيّ. وحسب الشهود فإن المسيحيين إجمالاً، مازالوا غير راغبين بظهور الموالاة بين صفوفهم بشكلٍ عسكريٍّ منفصل، ويفضلون على ذلك مشاركتهم في أطر لها طابع العمومية.

نلاحظ بهذا الخصوص أنه لا يمكن عدّ المجموعات المسيحيّة التابعة لـ"قوات الدفاع الوطني" ميليشيا مسيحيّة حتى الآن، وأن هذا الاكتمال يحتاج لأن تنفصل بذاتها و تتبلور لها قيادة وإرادة خاصة، وإن بقيت تابعةً لطرف ثانٍ. وهو ما لا نستبعد حصوله، كما أسلفنا، في سياق تفكك سلطة الأسد، و/أو تراجع منطقة نفوذها، ونعتبر تسمية مجموعة عسكريّة في صيدنايا باسم "مريم العدرى" مؤشراً على بداية تقبل فكرة التميز. مع ملاحظة أن سلوكيات وخطاب الميليشيا الشيعية، والتي عبّر عنها حسن نصرالله في خطابه الذي أشرنا له والذي حثَّ فيه الطوائف والإثنيات على التحوّل "مقاومة" (أي ميليشيات)، تشجع هذا المنحى.

وتتعاون المجموعات المسيحية في ميليشيا "الدفاع الوطنيّ" مع الميليشيات الشيعيّة عسكرياً[129]، إلا أن الأخيرة لا تحاول التجنيد ضمن البيئة المسيحيّة، نتيجة الاختلاف الديني، وليس لها أيّ نشاطٍ دعويّ، كونها تراعي الحساسية المفرطة للمسيحيين بهذا الصدد، وتراعي القوى السياسيّة المسيحيّة المتحالفة معها إن في سوريا أو في لبنان[130].

126- محمد غريبو، المسيحيون والثورة السورية، مصدر سبق ذكره

127- تنامي ظهور الميليشيات المسيحية المسلحة وسط دمشق وتجاوزاتها تخطت مثيلاتها ذات الصبغة العلوية، القدس العربي، http://www.alquds.co.uk/?p=347591

128- المعارضة السورية: النظام يضرب المسيحيين بالمسيحيين في يبرود، القدس العربي، http://www.alquds.co.uk/?p=142640

129- المرجع السابق

130 - بالإضافة للمراجع الواردة قمنا بجمع شهادات متوافقة.

أما في الجزيرة السورية، فقد ظهرت ميليشياتٌ مسيحيّةٌ فعلاً، سهّل الأمر عجز النظام السوريّ عن السيطرة العسكرية عليها من عام 2012، وتقاطع العامل الإثني مع العامل الديني. حيث أدخل حزب الاتحاد الديمقراطي الكردي ميليشيا مسيحية تابعة له من تركيا[131] اسمها "المجلس العسكريّ السرياني"[132]، لها ذراعٌ عسكريٌّ يدعى "قوات الأمن السريانية – السوتورو"[133].

وحسب مصادر متقاطعة[134] ينقسم "السوتورو" إلى جناحين، الأول تابع لمجلس السلم الأهلي ويتألف من تجمع شباب سوريا الأم، والتجمع المدنيّ المسيحيّ، يتمّ دعمهم وتزويدهم بالسلاح والرواتب من قوات الدفاع الوطنيّ التابعين للنظام، لكنهم لا يشاركون معهم في معاركهم ضدَّ المعارضة المسلحة، وإنما فقط يقيمون الحواجز والتفتيش في مدينة القامشلي. أما الجناح الثاني من قوات السوتورو فهو تابعٌ لحزب الاتحاد السرياني المقرب من حزب الاتحاد الديمقراطيّ الكردي، ويشتركان في الإدارة الذاتية بالجزيرة، وينتشر في مناطق المالكية والقحطانية وفي مدينة القامشلي، إضافة إلى أحياء في الحسكة. ويتقاضى رواتب عناصره وسلاحهم من وحدات حماية الشعب الكردية، ويتميز عناصره بتدريبات عالية المستوى."

ولاحظنا توقيع أحد الجناحين باسم "سوتورو" على البيانات مع الجناح الآخر الذي يوقع باسم "المجلس العسكري السرياني– القيادة العامة"، كما في البيان الذي أصدراه لإعلان تعاونهما مع مع ميليشيا "وحدات حماية الشعب" التابعة لحزب الاتحاد الديمقراطي الكردي، في قتال "داعش"[135]. وتتهم جهاتٌ كرديّةٌ معارضة هذه الميليشيا، بالتعاون مع ميليشيا "وحدات حماية الشعب"، باغتيال المعارضين من الآشوريين السريان[136].

الدروز

يتوزع الدروز في سوريا في جبل العرب (محافظة السويداء) وريف دمشق (في جرمانا وصحنايا) وفي محافظة إدلب (جبل السماق)، وأيضاً في قرى جبل الشيخ، ويشكلون 3% من النسيج الاجتماعي السوري. ويُعتبر جبل العرب المركز الروحي والاجتماعي لهم، لذا ركّز النظام على

131- مجموعة من الباحثين والصحفيين والنشطاء الحقوقيين السريان الآشوريين في سوريا، خفايا وأسرار المأساة الخابورية ... القصة الكاملة، الشبكة الآشورية لحقوق الإنسان، http://goo.gl/17SfFE

132- صفحة "المجلس العسكري السرياني" على شبكة التواصل الاجتماعي "الفيس بوك": https://goo.gl/qCxbTv

133- صفحة "السوتورو" على شبكة التواصل الاجتماعي "الفيس بوك": https://www.facebook.com/Sutoro.S.S.F

134- من الشهود الذين راجعناهم الناشط الإعلامي أسعد حنا.

135- بيان مشترك لميليشيا "المجلس العسكري السرياني" و"السوتورو"، https://goo.gl/qwM9Mq

136- مجموعة من الباحثين والصحفيين والنشطاء الحقوقيين السريان الآشوريين في سوريا، خفايا وأسرار المأساة الخابورية ... القصة الكاملة، الشبكة الآشورية لحقوق الإنسان، مصدر سبق ذكره.

محافظة السويداء، دون أن يهمل المناطق الأخرى حيث كانت قرى جبل الشيخ محسومةً من قبله. ونلاحظ بالتجربة المباشرة تباينات في طريقة تعامل كلّ منطقة حسب علاقتها بمحيطها، التي تصل في جبل الشيخ إلى حالة عداء مستمرة. واللافت هنا أن النظام السوري عكس رعايته للعداءات بين مكونات الشعب السوري بخصوص الطائفة الدرزية بعناية خاصة، وربما يرجع هذا للشكّ الذي يسكن قادته منها منذ محاولة سليم حاطوم الانقلاب في أيلول 1966، وانحيازها الجماعي له.

وقد اعتمدت إستراتيجية النظام تجاه السويداء على خبرته ودرايته بخصوصية تلك المحافظة ومخاوفها، والحساسيات الدينية والمناطقية والاجتماعية، كما قامت على معرفة الظرف الاقتصادي للمحافظة وكيفية استثمار تلك الظروف والحساسيات.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن الانزياح الإسلامي الواسع، والمتطرف فوق ذلك، الذي سيطر على الثورة السورية في طورها المسلح، سهل على النظام استقطاب الأقليات المذهبية في سوريا، ذلك أن الإسلام السياسي من شأنه أن يصدّ كلّ الأقليات المذهبية عن المشاركة الفعّالة في محاولة التغيير السياسيّ في سوريا، وهذا ما شهدناه.

وحسب تقاطع شهادات حصلنا عليها مع بحث أنجزه المركز سابقاً[137]، تقوم إستراتيجية النظام في المحافظة على أربع ركائز: الحساسية المناطقية بين درعا والسويداء؛ الحساسية القائمة بين البدو والدروز؛ الحساسية الدينية والطائفية؛ الاستثمار في الوضع الاقتصادي للمحافظة لأنها تُعتبر من المحافظات السورية الفقيرة. ومن ثمّ حاول النظام تشكيل الميليشيات عن طريق الإغراءات المالية والوظيفية.

قامت المعارضة في المحافظة، وبعض الهيئات الاجتماعية، بتشكيل فعالياتٍ سياسيّةٍ ونقابية واقتصادية وعسكرية واجتماعية معارضة وفق رؤيا منظمة تنسّق فيما بينها. فعلى المستوى السياسيّ ظهر تجمّع القوى الوطنية في السويداء وهو تجمّعٌ يضمُّ مجموعةً من الأحزاب التقليدية المعارضة كحزب الشعب الديمقراطي وحزب العمال الثوري وغيرهم ويضمّ قوىً ثورية كتنسيقية

137- همام الخطيب، في علاقة السويداء بدرعا في زمن الثورة، مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية، http://goo.gl/LIn6IF

محافظة السويداء ونقابات ثورية كالمهندسين الأحرار وهيئة (محامو السويداء من أجل الحرية) وبعض الشخصيات التي تمثل التكنوقراط والكتاب والباحثين.

وعلى الصعيد الاقتصادي جرى إنشاء صندوق محافظة السويداء وهو من أهم مؤسسات الثورة في السويداء، دعمه الرئيسي من تبرعات أبناء المحافظة في المغترب والداخل، يهدف إلى دعم الثورة السورية إن كان بالإغاثة أو الإمداد وشمل نشاطه كامل التراب السوري من درعا إلى دير الزور.

عسكرياً: تشكّل المجلس العسكري في السويداء بقيادة العقيد مروان الحمد وكان له مشاركاتٌ واسعة في حوران إلا أنه حورب دولياً وداخلياً ممّا أدى إلى وقف أعماله.

اجتماعياً: تشكلت الهيئة الاجتماعية للعمل الوطني في السويداء من مجموعة من الزعامات التقليدية في المحافظة وتهدف هذه الهيئة إلى إقامة المصالحات بين النسيج الاجتماعي على تنويعاته كافةً والحفاظ على السلم الأهلي وهي تنسّق مع تجمع القوى الوطنية في السويداء.

وضمن هذا السياق حاول النظام، بمشاركة فاعلة من حلفاء إيران اللبنانيين، استقطاب الدروز من خلال:

أولاً: الاستثمار في الطائفية ورجال الدين عبر توليفات دينية تقول بالتقارب الديني بين الدروز والشيعة؛ حيث وظّف مجموعة من المشايخ لتفسير بعض الكتب المقدسة بحثاً عن قاسمٍ دينيٍّ مشترك ما بين الدروز والشيعة، لتغطية التحالف السياسيّ الذي يسعون له. وحسب بعض المراجع الدينية الدرزية فإن هؤلاء المشايخ أقدموا على تزوير بعض الوثائق والكتب الفقهية الدينية المعتمَدة عند الطائفة الدرزية، وتحليل مضامينها وشرحها بطريقةٍ تخدم سياسة النظام في ذلك، ومن أهم الكتب التي أُخضعت لهذه العملية (كتاب المؤلَّف) للشيخ "محمد الأشرفاني"، وهو من الكتب الفقهية المعتمدة عند الدروز.

وقد نسّق النظام زيارةً إلى إيران ضمّت مجموعة من مشايخ الدين وتجار ورجال أعمال في المحافظة بلغ عددهم 27 شخصاً وهم من المحسوبين عليه حسب التصنيف السياسيّ والاجتماعي[138]، ومن أهم هذه الشخصيات وأكثرها فاعليةً لدى النظام "الشيخ كميل نصر".

ثانياً: الاستثمار في شخصية سمير القنطار على أساس أنها شخصيةٌ وطنيّةٌ واشتهرت بمقاومتها للاحتلال الإسرائيلي، فلقد دُعي من قبل النظام إلى السويداء وقام بجولاتٍ عدّة على وجهاء وزعماء تقليديين في المحافظة كداعيةٍ لضرورة التلاحم مع النظام والتنسيق مع حزب الله الذي هو حسب زعمه حامل لواء المقاومة في المنطقة.

ثالثاً: الاستثمار بشخصية وئام وهّاب وهو من دروز لبنان ولا يتمتع بشعبية كبيرة فيها وكان قد فتح مكتباً له ولحزبه (حزب التوحيد العربي) وأخذ دور العرّاب للميليشيا الشيعية في السويداء، وكلّ هذا بالتنسيق مع النظام.

رابعاً: دخول حزب الله إلى السويداء ومحاولة إغراء الشباب بالرواتب الشهرية واللباس المميز عن لباس باقي الفصائل، وبعث مجموعة من الشباب إلى إيران ليخضعوا هناك إلى دوراتٍ تدريبيّةٍ مدتها من 20 يوماً حتى الشهرين.

وإذا نظرنا الآن للوقائع على الأرض في محافظة السويداء بعين المتفحص، نجد أن محاولات النظام الرامية لربط الدروز بإيران قد باءت بالفشل حتى الآن، رغم فتح مكاتب تجنيد ومحاولة تجنيد الشباب تحت مسميات مختلفة (منها: كتائب البعث، لجان شعبية، الحشد الشعبي، درع الوطن). كان ثمة فشلٌ إيرانيٌّ على المستوى الدعويّ وعلى المستوى العسكريّ.

أسباب الفشل الراهن، واستناداً إلى بحثٍ سابق للمركز[139]، هي:

1- طبيعة الدروز المنغلقة والمحافظة، فرغم قبولهم للآخر على المستويين الاجتماعي والسياسي إلا أنهم يرفضون اختراق هذا الآخر لعقائدهم الدينية، فهم أقفلوا باب الدعوة؛ حيث إنهم لا يقبلون بانتساب الآخر إلى دينهم خوفاً من الاختراق ومن يخرج من دينهم يعتبرونه خارجاً من دائرة التقمص أي عاد إلى أصله.

138- زيارة وفد من السويداء إلى إيران، موقع تمدن، http://www.tamddon.com/?p=6762

139- همام الخطيب، محافظتا درعا والسويداء في مواجهة الفتنة- "قادسية بصرى" وأثرها على محافظة السويداء، مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية، http://goo.gl/qLDS7S

2- طبيعة علاقات الدروز الاجتماعية حيث هناك تعاقدٌ على مجموعةٍ من العادات والتقاليد المتوارثة وهناك حساسيةٌ عاليةٌ من الذي يوحي بمحاولة اختراقها من أي جهة كانت.

3- فقدان الثقة من قبل الميليشيات الموالية المسلحة في السويداء بالنظام والميليشيا الشيعية ولاسيّما بعد أن خذلوهم في معركة قادسية بصرى في درعا[140] ولم ينسّقوا الانسحاب معهم فبقيوا محاصرين داخل مدرّج بصرى الأثري إلى أن أطلق الجيش الحر سراحهم كبادرةِ حسن نيةٍ تجاه أهالي السويداء.

4- تصدّي مَن باتوا يُعرفون بمشايخ الكرامة لظاهرة التحريف الدينيّ السياسيّ في السويداء، وإصرارهم على رفض زجِّ الدروز في حربٍ طائفيّة. ولكن تبقى ظاهرة "مشايخ الكرامة" في إطارها الدينيّ-الطائفي لأن مؤسّسيها هم من مشايخ الدين الدروز، على الرغم من أنه فيما بعد التحق بهم عددٌ غيرُ قليلٍ من الشباب غير المتديّنين، ورغم خطاب "مشايخ الكرامة" الداعي للخروجَ من دائرة الطائفة إلى دائرة المشترك الوطني الذي نعتقد أنه يعبر عن مصلحة للدروز في فتح الآفاق الوطنيّة ومنع الإغلاق عليهم بأسوار الطائفية؛ وهذا ما ظهر جلياً في خطاب الشيخ أبي فهد وحيد البلعوس، حيث قال (بتصرّف): "سوريا أمُّنا، ومن يريد السير في ركب إيران فليذهب ومن يريد السير في ركب السعودية فليذهب أيضاً، أما نحن فباقون هنا". وفي موضعٍ آخر قال: "لا نريد رئيساً يحكمنا من إيران، ولارئيساً يحكمنا بأفكار ابن تيمية، نريد رئيساً يحكمنا بالقانون".

إلا أنه تواجه مشايخَ الكرامة صعوباتٌ كبيرةٌ، لا نبالغ إن قلنا إن بعضها بنيويٌّ، تقف حجر عثرةٍ في وجه تغيير طبيعتهم الطائفية. فوقوعهم بين مطرقة التطرّف الشيعي وسندان التطرف السنّي، يعمّق العصبية الدرزية لديهم، وفي حال لم تظهر قوة حاسمة لجامعٍ وطنيٍّ لا يمكن استبعاد أن ينحادوا عن الخطِّ الوطنيِّ الذي يعبرّ خطابهم عن ويعهم بأن لا نجاة إلا به.

ومن المظاهر العملية للفشل الراهن لمخطط ربط الدروز في الميليشيا الشيعية وإيران:

أ- استياءٌ متزايدٌ بين أبناء المحافظة من زيارة رجال الدين والتجار في السويداء إلى إيران ومن بينهم الشيخ "كميل نصر" وهو من مشايخ السلطة الذي طالما استخدمه النظام كعرّاب

140- المصدر السابق

لعلاقة الدروز بالشيعة حتى بات أهالي السويداء يتندرون عليه فيقولون (الملا كميل أو كميل الخامنئي).

ج – فشل مشروع إنشاء جيش الحشد الشعبي الذي سعى النظام وعملاؤه لتشكيله في محافظة السويداء، وكان النظام مصرّاً على التسمية لما فيها من دلالةٍ طائفية؛ فالحشد الشعبي أطلق على الميليشيا الشيعيّة في العراق، وكان النظام يهدف من تشكيل هذا الجيش لجعله قوةً تحدُّ من التعاطف الشعبيّ مع ظاهرة مشايخ الكرامة وليضعوه في مواجهتهم، إلا أن أهالي السويداء تنبهوا لهذا المخطط، ويعود الفضل في ذلك للمعارضة والنخبة الواعية في السويداء التي فضحت المشروع وتابعت تفاصيله وحذّرت منه. والدليل على فشل هذا المشروع أن النظام الآن يُعدُّ لتشكيل ما يسمّى جيش درع الوطن واختار التسمية بما يتوافق مع طبيعة أهالي السويداء بعد أن غيّر اسمه من (الحشد الشعبي) إلى (درع الوطن)، ولكن هذا الأخير لا يحوز بدوره، حتى الآن، على التوافق الشعبيٍّ عليه، وتقف المعارضة و"مشايخ الكرامة"[141] في وجهه، ما يرجح فشله.

ومن ناحية أخرى أصاب هذا المشروع الخذلان عندما زار الشيخ أبو وائل الحناوي ومجموعة معه بشار الأسد، وطالبوه بإعادة الآليات الثقيلة إلى محافظة السويداء بعد سحبها، كما طالبوه بتسليح الجبل للتصدّي إلى داعش فقال لهم: "أعيدوا 27000 متخلف إلى الخدمة العسكرية، وبعدها لكل حادث حديث"[142]. والبيان الذي صدر عن الرئاسة الروحية للمسلمين الموحدين والذي يدعو شباب السويداء للالتحاق بالخدمة الإلزامية يحمل توقيع شيخٍ واحدٍ هو حكمت الهجري، ومعروف أن أي شيء يصدر عن الهيئة الروحية يجب أن يوقع من مشيخة العقل المؤلفة من ثلاثة من شيوخ العقل.

د– ظهر في الآونة الأخيرة على صفحات الإعلاميين ومحطات إعلامية كالأورينت وغيرها، وعلى صفحات بعض المعارضين من السويداء، أن إيران شرعت بشراء الأراضي في محافظة السويداء وإقامة الحسينيات والبدء عملياً في الدعوة للتشيّع؛ وهذا الكلام عارٍ عن الصحة حتى الآن. تحدث شهودنا عن اعتقادٍ عامٍّ في أوساط السويداء بأن النظام يقف خلف هذه الإشاعات

141- للاطلاع على ظاهرة "مشايخ الكرامة" مراجعة: همام الخطيب، محافظتا درعا والسويداء في مواجهة الفتنة- "قادسية بصرى" وأثرها على محافظة السويداء، مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية، مصدر سبق ذكره.
142- نقلاً عن لسان الشيخ الحناوي من مصدرٍ موثوق.

بهدف استمزاج الآراء في المحافظة، وسبرها وقياس ردة فعل الأهالي، قبل أن يقدم على خطوات عملية بهذا الصدد.

ونلاحظ أن ردة الفعل على هذه الإشاعات تماشت مع تركيبة مجتمع السويداء التي أفادنا بها شهودنا، حيث صدرت مجموعةٌ من المواقف والتصريحات والبيانات عن فعاليات مدنية في المحافظة وزعامات روحية وزعامات تقليدية، تستنكر وتندد بهذه الأفعال وتعتبرها عدواناً على الدروز ومجتمعهم وعقيدتهم، ووصل بعضها إلى التهديد والوعيد.

ومن ردات الفعل التي رصدناها :

- بيان تجمّع يقظة الموحدين : والذي جاء فيه "نحن تجمع مشايخ يقظة الموحدين نعتبر أن هذا عملٌ عدوانيٌّ، ومحاولةٌ لاختراق ثقافتنا، ونعتبره هجوماً علينا ويستوجب الرد..."[143]

- توعدت منظمة تطلق على نفسها (سيف المقداد بن الأسود) كلّ من سيبيع أو سيؤجر عقاراً للمجنسين الجدد بالقتل.

هـ- الانشقاقات الكبيرة التي حدثت في ميليشيا الدفاع الوطني وميليشيا حزب الله من أبناء السويداء وانضمام قسمٍ منهم إلى "مشايخ الكرامة".

الوضع الميداني للميليشيا الشيعيّة في السويداء

عمدت الميليشيا الشيعية لجرِّ الشباب في السويداء إلى خندقها العسكريّ عن طريق الإغراءات المادية والسلطوية على الناس؛ ولقد أعطت في البداية من تجند معها من الشباب الكثير من الميزات، من حيث الرواتب الشهرية حيث تراوح راتب العنصر بين 30 إلى 40 ألفَ ليرةٍ سورية و 5 آلاف ل.س على كلّ مهمةٍ، وهو راتبٌ متفوّقٌ على رواتب باقي الفصائل المقاتلة مع النظام. كما ميّزتهم باللباس الجيد، ووعدتهم بقروضٍ شخصيّةٍ (في اجتماعٍ في منزل المدعو "نزيه جربوع") ولم تنفذ وعدها لاحقاً. ومع ذلك بقي عدد تلك الميليشيا يتراوح بين 400 إلى 500 عنصرٍ، وهذا في أحسن تقديرات شهودنا، وذلك قبل رفض بعضهم الالتحاق وقبل التأخر

143- مشايخ دروز في السويداء يطالبون إيران بوقف بناء حسينياتها، موقع قناة العربية، http://goo.gl/Tf9rdn

في إعطاء الرواتب وقطعها في بعض الأشهر، ولاسيّما في عام 2015 وتحديداً بعد معركة بصرى الشام وبصر الحرير.

كما استخدم حزب الله المكتب الذي فتحه وئام وهاب في برج المدينة في قلب محافظة السويداء لاستقبال طلبات الانتساب، وإجراء المقابلات وبعض الاجتماعات الضيقة. وكان من يقوم بعملية التنظيم والإشراف على طلبات الانتساب هما شخصان "تيسير حاطوم" و"وجيه عقل". وبعد الموافقة على الانتساب، ولم يُشترط فيه الولاء الشيعيّ أو الاثنا عشري بل هو فقط عبارة عن عقد عمل أو اتفاق عمل، ومن ثَمَّ يتمُّ التجمع في: حقل كريّم، ويقع شمال قرية الصَّوَرة وغرب كازية مرجانة؛ ومقرُّ القيادة ومستودعات الأسلحة، في مطار خلخلة. مع العلم أن بعض المتطوعين يُبعثون إلى إيران للخضوع إلى دورات تدريبية، ومنهم يُدربون ليكونوا قنّاصين محترفين. والمعلومات الأخيرة وفق ما أكده لنا شاهدٌ من قلب هذه الميليشيا بعد أن امتنع عن الالتحاق بها ولم يسلّم سلاحه كما أضاف: (إنهم كانوا يتعاملون معنا بسرية تامة ومن دون ثقة على الإطلاق حتى إن أسماءهم كانت وهمية كـ"الحاج عباس" و"الحاج إبراهيم" و"أبي حيدرة"، وكنا متأكدين أن هذه ليست أسماءهم الحقيقية بل كانوا يموهونها علينا) وأردف الشاهد ذاته بعد سؤالي له عن كيفية المعاملة التي تلقّوها من قبل الميليشيا قال: (كانت الثقة معدومة ولكن كنا في أفضل حالٍ من حيث المأكل والمشرب واللباس، لقد عُفنا الطعام، ولكن قررنا الامتناع عن الالتحاق بهم بعد ما تبين لنا من غدرهم في معركة بصرى الشام، وعندما طالبونا للذهاب معهم بعد ذلك للقتال في بصر الحرير امتنعنا أنا ونحو خمسين شاباً أعرف معظمهم بالاسم) وعند سؤاله عن المسؤول المباشر عنه قال: (كنت أعرف منهم شخصاً يُدعى "رواد عبد الخالق" وهو من محافظة السويداء وهو مسؤول التعبئة وتوزيع السلاح في الحزب أما الباقي وهم من الغرباء عن المحافظة فقد كانوا يستخدمون أسماءً حركية).

كما أن حزب الله نسّق مع ميليشيا الدفاع الوطنيّ وهما ينسقان مع الفصائل التالية:

أ- ميليشيا الحزب القومي السوري: وهي تابعة للحزب القوميّ السوريّ الاجتماعي وهذا الحزب له منفذ عام في السويداء وهو "سمير الملحم".

ب- ميليشيا كتائب البعث : تابعة لحزب البعث العربي الاشتراكي، والمسؤول عنها رئيس اللجنة الأمنية في السويداء "شبلي جنّود" والمسؤول العسكري هو العقيد "نواف أبو حمرة" .

ج- ميليشيا حزب التوحيد: وهي تابعة لحزب التوحيد العربي الذي يتزعمه وئام وهاب وهو شخصية لبنانية لا تتمتع بشعبية لدى دروز لبنان، فتح مكتباً لحزبه في السويداء بالتنسيق مع النظام السوري وشرع بتوزيع الأسلحة على الشباب وبعض المشايخ ومن ثمّة بعد التطورات الأخيرة في السويداء أوقف نشاطه وحُلّت الميليشيا وترك المكتب لحزب الله ليسيّر أموره في المحافظة.

د- ميليشيا جمعية البستان: وهي جمعية أسسها رامي مخلوف رجل الأعمال السوري وقريب بشار الأسد، أما في السويداء كان يقوم بتسيير أعمالها في المحافظة زوجة العميد عصام زهر الدين "هند زهر الدين" وابنه يعرب.

إلا أنه بعد الأحداث الأخيرة في السويداء التي تطرقنا إليها أعلاه، تعرضت هذه الميليشيات للتفكك وسُجِّل فيها حالات انشقاق وامتناع واسع عن الخدمة فيها.

الإسماعيليون

يبلغ تعداد الإسماعيليّين نحو 250 ألف نسمة، أي ما نسبته 1 بالمئة من السوريين. وتنقسم الطائفة بين "الإسماعيلية النزارية"، والتي تتمركز في مدينة السلمية (مركز ثقل الإسماعيليين في سوريا ففيها نحو 70 بالمئة منهم)[144]، ومنطقة "نهر الخوابي" في ريف مدينة طرطوس (وهم الأغلبية في قراها ومنها: البريكية؛ وبيت ديبة؛ ونبع ناصر)[145]؛ و"النزارية المؤمنية"، وتتمركز في مدينتي مصياف والقدموس كأغلبيّةٍ سكانية.

وكغيرها من الطوائف السورية، التي لا يوجد لها بنيةٌ طائفيّةٌ سياسيّة، يصعب الحديث عن موقفٍ سياسيٍّ للطائفة الإسماعلية يلتزم به معظم أفرادها طوعاً أو بالإرغام. إلا أن هناك ما يمكن عده

144- إبراهيم الجبين، الإسماعيليون امتلكوا جراءة التحولات من ثأر المظلومية إلى الفكر والتعايش، جريدة العرب اللندنية، [نُشر في 2014/01/25، العدد: 9449، ص(6)]، http://www.alarab.co.uk/?id=13724

145- المصدر السابق.

"ذهنية مشتركة"، تنتج في سياق التجربة التاريخية الخاصة لهذه الطائفة أو تلك، وتبقى مؤثرة بالتواتر عبر تحولها إلى جزء من "التراث الاجتماعي الديني"، وطالما لم تنجز دولة المواطنة والديمقراطية.

وفي إرث الإسماعيلية البعيد قصة مذهب انفتح على الفلسفة بشكل غير مسبوق إسلامياً، وكان رائداً في مجال العمل التنظيمي السياسي الدعوي، عرف الازدهار وصولاً لتشكيل دول، وعرف الهزائم وصولاً إلى الطرد من المناطق الغنية بالموارد.

فيما يخصُّ سوريا هجّر العلويّون الإسماعيليين من الجبال المطلة على شرق المتوسط إلى السهول الداخلية في منتصف القرن التاسع عشر بعد سلسلة من الصراعات الطويلة[146]. وقد وقعت صدامات عديدة بين الإسماعيليين والعلويين في فترات مختلفة، وفي كثير من الأحيان وقعت صداماتٌ دمويةٌ كما حصل في الأعوام 1800 و1919 و2005 في منطقتي مصياف والقدموس[147].

وفي إرث الإسماعيليّين القريب مشاركةٌ مصرة في الحركة الثقافية الوطنية، ودورٌ مؤثّرٌ لنخبةٍ ثقافية علمانية.

ومع الشرط الاقتصادي السياسي المشترك سورياً، كانت هذه "الذهنيّة" عاملاً مؤثراً في مشاركة قطاع واسع من الإسماعيليين، تحديداً في مدينة سلمية[148]، في الثورة، بمواجهة مع الحملة الدعائية التي أطلقها النظام السوري بداية الثورة لإرهاب الأقليات. فتحوّلت السلمية إلى بيئةٍ حاضنةٍ للناشطين العلويين في الثورة ولتباشير التلاقي الوطني الذي بشرت به الثورة في سنتها الأولى إجمالا[149].

وفي مواجهة الحراك الشعبي، الذي غلب عليه في البداية الطابع السياسي التحرري، تحركت آلة النظام متكئة على كلِّ ما في المجتمع من سلبيات. حيث استوعبت الأجهزة الأمنية القوى الاجتماعية السلبية (مجرمين، عاطلين عن العمل، الخ)، وأطلقت يدهم على الناس، وحرضت

146- إبراهيم غرايبة، عرض كتاب "تاريخ الإسماعيليين الحديث: الاستمرارية والتغيير لجماعة مسلمة"، http://goo.gl/z60aaM
147- إبراهيم الجبين، مصدر سابق الذكر.
148- صبر درويش- فريق عمل، السوريون وتجربة النزوح – العلاقة بين سكان مدينة السلمية والنازحين إليها قسراً، مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية، http://goo.gl/CvbdjU
149- المصدر السابق.

العصبية الطائفية في وسط أكثر الناس تضرراً من نظام النهب العام. وكان من أبرز أدواتها في مدينة سلمية مجموعة من آل سلامة، وهم علويون يقطنون منطقة ضهر المغر في الحي الجنوبي للمدينة، ليصبحوا، بعد صراعٍ طويلٍ ومعقّد مع الحراك الشعبي الديمقراطي، سادة أمر واقع لمدينة مكسورة.

ومع تراجع قدرة الجيش والميليشات التابعة للنظام بدأت تظهر الميليشيا الشيعية، حيث تمركزت هذه الميليشيات بشكل أساسي على حدود المدينة مع حضورٍ بسيط داخل المدينة، حسب مصادرنا. ومن هذه الميليشيا الكتيبة 47، التابعة للحرس الثوري الإيراني، والمتواجدة بشكل رئيسي بالقرب من قرية زغرين في ريف سلمية، ويستلم إدارتها ضباط إيرانيون.

وحسب مصادرنا، يوجد مكتب لحزب الله اللبناني يقوم بتجنيد أشخاص من المدينه لصالحه، مع حديث عن تلقي المجندين تدريباً لمدة ثلاثة أسابيع في لبنان. ويوجد اليوم أكثر من مكتب لحزب الله، أحدها في حي المنطار شمال المدينة، وآخر في وسط المدينة قرب جامع الإمام إسماعيل، دون أن يكون معلناً بشكل واضح، فلا يافطة أو علم لحزب الله على مدخله.

إلا أن تحركات الإيرانيين، وحزب الله، مازالت حذرةً ومتكتمة مراعاة للحساسيات المحلية[150]؛ على الرغم من ذلك استنتجنا وجود تصور نمط منهجي لعملهما، حيث يقومان بتشكيل نواة شيعية من أناس كانوا إسماعيليين في الأصل، مع انفتاح على تشغيل آخرين دون شروط عقائدية مبدئياً، مع عملية تسييس وتثقيف ديني تدريجي. وكما نصت إستراتيجيتهما سابقة الذكر يقومان بدعم قوى محلية؛ فبالإضافة للدفاع المدني يدعمان تشكيلاً عسكرياً تابعاً للحزب القومي الاجتماعي السوري يمتاز بخطابه الطائفي العلني.

وحسب مصادرنا، كانت عائلة "دوم" (وهي عائلة تقطن سلمية ولكن أصلها من الريف المحيط بها، وهي واحدة من العائلات القليلة التي تدين بالاثني عشرية داخل المدينة، ولا تختلف عن آل سلامة من حيث الفقر وانعدام التعليم وامتهانها للأعمال اليدوية قبل الثورة) من أول من أسس ميليشيا شيعية في المدينة، وقاموا بإنشاء مركزٍ لهم قرب كازية البادية جنوب المدينة. وقد جرى تنازع مسلح بينهم وبين آل سلامة.

150- مازن إسماعيل، كاتب ومعارض سياسي من سكان المدينة. يعيش حالياً في تركيا واعتقل لمدة سنة ونصف.

وعلى الرغم من الاستياء العام على النظام السوري، وعلى أدواته، والحساسية العامة من الميليشيات الشيعية، إلا أن امتناع الناس عن الاحتجاج يبرره الخوف الناجم عن:

1. الخوف من تكرار ما حصل في المدن الأخرى بالمدينة، من تدمير وتهجير وقصف وقتل...

2. بسبب قبضة النظام الحديدية عبر الميليشات، على أن هذه الميليشيات تستخدم سياسة "الشد والرخي" حيث يتم تخفيف الضغط على المدنيين كلما ظهرت علائم الغضب العام. ليعود الوضع لحاله السيِّئ بعد فترة. ومن الأمثلة على ذلك، صدور قرار بإزالة "تعتيم" بلور سيارات "الشبيحة"، وهو ما يقومون به لتسهيل عمليات الخطف. لكن الأمور عادت إلى سابق عهدها. ويقوم النظام أحياناً باعتقال أحد "الشبيحة" إذا علت احتجاجات الأهالي ضده، لفترةٍ مؤقتةٍ ثم يطلق سراحه كما حدث مع "إبراهيم الصالح".

3. الخطر القادم من القوى الإسلامية المسلحة، والتي قامت بعدة سلوكيات في الفترة الأخيرة أدت إلى رسم حدٍّ واضح مع الإسماعيليين قائم على الخوف والرفض، نذكر منها:

أ- قتل ناشطين معارضين. ففي أول العام الجاري تم قتل أربعة نشطاء مدنيين من مدينة سلمية، في منطقة إدلب، من قبل جهات تسيطر على تلك المنطقة، وتمَّ اتهام جبهة النصرة بهذه العملية، وردها لأسباب طائفية، علماً أن الشباب الأربعة جميعهم معارضون للنظام وتعرض بعضهم للاعتقال، وبعضهم للملاحقة أو الطلب لخدمة الجيش، وهذا هو سبب هربهم من مدينة سلمية.

ب- كذلك قامت إحدى الكتائب المسلحة التي يتولى قيادتها الساروت (حارس المرمى السابق، والذي يقال إنه بايع "داعش") بقصف المدينة بعدة صواريخ أدت إلى جرح أطفال وقتل عدة مدنيين. وجاء في البيان الذي تناوله ناشطون على صفحات الفيس بوك، أنه قد تم قصف مدينة سلمية النصيرية، الموالية للنظام انتقاماً لشهداء حمص. وتكرر القصف مرة ثانية في وقتٍ لاحقٍ وأدى إلى مقتل عدد من الضحايا المدنيين.

ت- ارتكاب "تنظيم الدولة الإسلامية" مجزرة في قرية المبعوجة التابعة لسلمية، وقيامها بخطف عدد من النساء، بعضهن من السنّة.

ث–قيام جبهة النصرة، أواخر عام 2014، باعتقال عدد من شباب مدينة سلمية المنتسبين للجيش الحر، بمن فيها قائدهم "أبو منصور"، مهددة بقتلهم، لكنها أطلقت سراحهم بعد وساطات، وقامت بمصادرة سلاحهم.

هذه الحالات شكلت حالةً خوفٍ كبيرٍ لدى سكان المدينة، من معارضين ومؤيدين؛ وبات الإسماعيليّون يجدون في قوى الإسلام المتشدد في محيط المدينة مصدرَ تهديد لوجودهم، ولاسيما في ظل هذا الحشد الطائفي الكبير الذي تعيشه البلد.

وإذا كانت هذه الحالة تدفع السكان للجوء إلى الطرف المقابل أي النظام، فإن الانتهاكات التي قامت بها قوات الدفاع الوطني (من خطف، واعتداءات)، جعلتها أيضاً مصدراً لا يقل خطراً بالنسبة للإسماعيليين عن الطرف السابق. حتى إن الإسماعيليين اليوم، لا يعتقدون – بجزء منهم على الأقل – بقدرة النظام على حمايتهم، ولاسيما بعد مجزرة المبعوجة التي ارتكبها "تنظيم الدولة الإسلامية" ، حيث تأخرت قوات الدفاع الوطني المتمركزة في قرية صبورة العلوية على بعد 5 كم من المبعوجة، عن المؤازرة لعدة ساعات، ولم تصل إلا بعد أن انسحب التنظيم من القرية. وبعد أن قام "تنظيم الدولة الإسلامية" بالانسحاب حاول بعض عناصر الدفاع الوطني سرقة البيوت(151) مما أثار غضب الأهالي بشكل كبير.

لهذه الأسباب تجد مدينة سلمية نفسها بين فكي كماشة. فكّها الأول هو قوى متطرفةٌ سنيّةٌ التي باتت تحاصر المدينة تقريباً، وفكها الثاني هو اللجان الشعبية التي يسيطر عليها علويون، مدعومة من ميليشيات شيعية.

الفلسطينيون السوريون(152)

يبلغ عددُ اللاجئين الفلسطينيّين في سوريا وفق تقديراتِ الأونروا ومؤسّسات المجتمع المدنيِّ، نحو 600 ألف لاجئ؛ بما يمثّل 2.6% من مجموع سكان سوريا(153). يعيش منهم نحو 260 ألفاً في

151- صبر درويش- فريق عمل ، السوريون وتجربة النزوح – العلاقة بين سكان مدينة السلمية والنازحين إليها قسراً، مصدر سبق ذكره.

152- يوسف فخر الدين ويوسف زيدان، "الفلسطينيون السوريون في المحنة السورية"، كتاب إلكتروني إصدار مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية، http://goo.gl/6AXDaQ

153- عدد سكّان سوريا بحسب المجموعة الإحصائيّة السوريّة أكثر من 21.5 مليون نسمة لعام 2012.

دمشق، و220 ألفاً في ريف دمشق، و37 ألفاً في حلب، و33 ألفاً في درعا، و24 ألفاً في حمص، و 12 ألفاً في اللاذقيّة، و10 آلافٍ في حماة، والباقي نحو 4 آلافٍ يتوزّعون على القنيطرة وإدلب والرقّة ودير الزور والسويداء(154).

يتركّز اللاجئون الفلسطينيّون في سوريا في 13 مخيّماً و 14 تجمّعاً، والبقيّة يعيشون في المدن الرئيسة. وتقع المخيّمات تحت إشراف الهيئةِ العامّة للاجئين الفلسطينيّين من ناحية الشؤون الإداريّة والأحوال المدنيّة, بينما تقعُ التجمّعات تحت إشراف البلديّات.

الرأي العام

منذ بداية الثورة مال الفلسطينيّون السوريون إلى الحذر خوفاً من تكرار تجربة عاشها أقرانٌ لهم في الكويت والعراق وقبلها الأردن ولبنان. إلا أن أجهزة الأمن السورية، بمعونة من حزب الله، وفصائل فلسطينيّة، تحدّت هذه الإرادة العامة عبر دفع شباب إلى الجولان السوري ليقتلوا بنيران الاحتلال الإسرائيلي دون معين. ما بدا بعين الناس استخداماً لدمهم خدمة للنظام السوري، فانتفضوا في مخيم اليرموك أثناء تشييع الشهداء القادمة جثامينهم من الجولان؛ وكان موقفاً واضحاً برفض استخدام الشعب الفلسطينيّ، وحياة أبنائه وبناته، وقضيته، لخدمة النظام السوري في مواجهة الثورة. ورداً على الانتفاضة الشعبيّة أطلقت الجبهة الشعبية القيادة العامة النار على المتظاهرين السلميين155، بينما تحرك الفلسطينيون في عدة مخيمات في دمشق تضامناً مع المتظاهرين وموقفهم أبرزها التحرك الذي حصل في مخيم خان الشيح.

رغم هذا الموقف بقيت الفصائل الفلسطينيّة المرتبطة بالنظام السوري، والمسماة "فصائل دمشق"، تخدم النظام السوريّ، وعبر العلاقة مع إيران وبدعم منها؛ فشاركت في حملة العلاقات العامة لخدمته، وترويج روايته(156)، واللقاء مع القوى السياسيّة المتضامنة تقليدياً مع الشعب الفلسطينيّ لإقناعها بمعاداة الثورة السورية(157). وشاركت في المجهود العسكريّ للنظام(158)، وممّا قامت به

154- د. سمير حسن و سميّة سعد الدين، السكّان المقيمون غير السوريّين وخصائصهم، عام 2007.

155- تفاخر أحمد جبريل، الأمين العام لـ"القيادة العامة"، لزواره في اليوم التالي للانتفاضة أنه استمر لساعات بإطلاق النار على المتظاهرين بنفسه.

156- لقاء مع أحمد جبريل، الأمين العام لـ "القيادة العامة"، محطة العالم الإيرانية، https://www.youtube.com/watch?v=bJLwsEDoyt8

157- ليلى خالد، عضو مكتب سياسي للجبهة الشعبية، لقاء مع قوى متضامنة مع الشعب الفلسطيني، https://www.youtube.com/watch?v=aGjfEX-FNcE

158- الكتاب الإلكتروني " الفلسطينيون السوريون في المحنة السورية"، مصدر سبق ذكره.

المساهمة في حصار مخيم اليرموك، وتغطية قصف مخيم خان الشيح بمئات البراميل المتفجرة، والصواريخ، والهاون، على الرغم من خلوه من السلاح والمسلحين[159].

إلا أن الصراع بين هذه القوى وبين الحراك الشبابيّ لم يتوقف، هذا رغماً عن تدمير النظام للمجتمع الفلسطينيّ في المخيمات، بمساهمة منها[160].

التشكيلات العسكريّة الموالية[161]

بدأت التشكيلات العسكرية في أوساط الفلسطينيين، حسب تقاطع الشهادات التي حصلنا عليها، بدفع من الحرس الثوريّ الإيراني، الذي أرسل أحد قادته في بداية الثورة ليجتمع مع مندوبين من الفصائل بشكلٍ جماعيٍّ ويطلب منهم الاستعداد للدفاع عن "محور المقاومة والممانعة" حسب قوله، ويعلمهم عن استعداد إيران لتلبية كلّ احتياجاتهم.

في نهايات شهر حزيران يونيو 2012 بدأت خطواتٌ عمليّةٌ من أجل تشكيل ما سمته الجبهة الشعبية القيادة العامة "اللجان الشعبية"[162]، حيث افتتحت قيادة الجبهة في مقر الخالصة في مخيم اليرموك مكتباً لتسجيل المنتسبين إلى هذا الجسم الجديد، وفي ظلّ إنفاقٍ ماليٍّ وتجهيز تسليحيٍّ خفيف ذُكر أن عدد عناصرهم وصل إلى ما يقرب من 2500 عنصر[163]. إلا أنه هناك مبالغة بالرقم، فقد عرف عن القيادة العامة مبالغاتها للحصول على المزيد من التمويل الإيراني، وهي أشاعت هذه الأرقام بهذا الهدف[164]. بينما كانت تقاطعت تقديرات شهودنا على أن عدد عناصر هذه اللجان بلغت بحدود 500 عنصرٍ تحت السلاح[165].

وانتشرت عناصر اللجان الشعبية داخل المخيم في كلِّ الأحياء تقريباً وشكّلت حواجز ضيقت على المواطنين بشكلٍ كبيرٍ دون وجود أيّ معنى عملياتيٍّ لها، إذ كان المخيم خالياً تماماً من أيّ

159- يوسف زيدان وإبراهيم العلي، اللاجئون الفلسطينيون في المحنة السورية: محطات وإحصائيات، مرجع سبق ذكره

160- يوسف فخر الدين، مخيم اليرموك: صراع الأجيال، وتدمير مجتمع العصاة، مجلة الدراسات الفلسطينية، ملف اليرموك كارثة أكبر من مخيم، العدد 103، ص36.

161- للاطلاع بتفصيل أكثر على التشكيلات المسلحة الفلسطينية (الموالية والمعارضة): صبر درويش، السلاح والمسلحون الفلسطينيّون في مخيم اليرموك، مجلة الدراسات الفلسطينية، ملف اليرموك كارثة أكبر من مخيم، العدد 103، ص48.

162- في عدة مواضع تالية استفدنا من الشهادة المكتوبة التي حصلنا عليها من الباحث الفلسطيني طارق حمود.

163- موقع فلسطين أونلاين، http://goo.gl/VofJSi

164- في مقابلة لعباس زكي ، عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، مع وكالة أجراسيا للأخبار الأردنية، في طريق عودته إلى الضفة الغربية عائداً من لقاء مع بشار الأسد في دمشق، قال: " التقيت بكل فصائل منظمة التحرير الفلسطينية باستثناء القيادة العامة التي خدعت القيادة السورية بامتلاكها آلاف المقاتلين الذين يمكن أن يدافعوا عن المخيمات ليتفاجأ السوريون بالأعداد المتواضعة لمقاتلي الجبهة". موقع الوكالة، http://www.gerasanews.com/index.php?page=article&id=123575

165- تقاطع شهادات، أبرزها شهادة الإعلامي فاروق الرفاعي

وجودٍ لأيّ طرفٍ من أطراف الصراع السوري باستثناء المجموعات التي تتبع القيادة العامة، والتي نشأت في ظلّ إنفاق ماليٍّ وتسليحيٍّ يفوق قدرات تنظيمٍ مثل القيادة العامة، معروفٍ بإمكانياته البشرية والمالية المتواضعة، ويدلّ على الممول الإيراني دون لبس. وهو ما كان نقطة الفصل في الموقف بالنسبة لمجموعات المعارضة في الأحياء السورية المجاورة لليرموك.

لقد شكّل وجود قوات القيادة العامة من خلال عناصرها واللجان التي سلحتها داخل مخيم اليرموك أحد أوجه وجود النظام بالنسبة للمعارضة، حيث مثّل وجود سلاح القيادة العامة داخل اليرموك أول كسر لمعادلة تحييد المخيم، التي التزمت بها مجموعات المعارضة نسبياً خلال الثمانية شهورٍ السابقة حتى نهاية أغسطس 2012، وهي المدة التي تقدر لوجودها الزمني في أحياء متاخمة للمخيم مثل التضامن والحجر الأسود. استمرَّ وجود لجان القيادة العامة داخل اليرموك حتى منتصف ديسمبر 2012 وهي مدة تقارب الثلاثة شهور ونصف، دخل فيها المخيم دوامة عنفٍ دمويّةٍ غير مسبوقة.

تتبع التشكيلات العسكرية الفلسطينيّة المقاتلة دفاعاً عن النظام السوري إلى إيران صراحة، ويتموضع حزب الله اللبناني فيها في موقع الموجه والمتحكم، كونه الوكيل الرئيسيّ للنظام الإيراني ولمعرفته الطويلة والتفصيلية بالفصائل الفلسطينية. وتتعاون التشكيلات العسكريّة الفلسطينيّة هذه مع الميليشيات الشيعية في كلٍّ من حلب والمنطقة الجنوبية في دمشق (يساهم الطرفان في حصار المنطقة الجنوبية، والدور الموكل للميليشيات الفلسطينيّة هو حصار مخيم اليرموك من جهة مدخله الرئيسي). كما اتهمت أطرافٌ في المعارضة المسلحة، عبر وسائل الإعلام، هذه التشكيلات بالمشاركة في معركة القلمون، دون وجود أدلة ملموسة.

أبرز التشكيلات المسلحة الفلسطينيّة

أ- لواء القدس (حلب)

أشرس المجموعات الفلسطينيّة المدافعة عن سلطة الأسد، وقد تحوّل فيها الفلسطينيون مع الوقت إلى أقليةٍ. تأسست بداية عبر التعاون بين الجبهة الشعبية- القيادة العامة ومهندسٍ فلسطينيٍّ مرتبط بأجهزة الأمن يدعى محمد السعيد، من مواليد مخيم النيرب جنوب حلب، في 2012. فقامت "القيادة العامة" بدمج لجانها المسلحة مع مجموعاتٍ مرتبطة بالأجهزة الأمنية. وأخبرنا

شهودٌ بأن كلّ هؤلاء كانوا منذ بداية الثورة يقومون بالمشاركة في حملات المرتبطين في أجهزة الأمن في حلب لإرهاب المدنيين، والطلاب في الجامعة، لثنيهم عن التظاهر.

وإذا كانت "القيادة العامة" وكيلاً أمنياً، يتشابك العمل معها مع العمل المباشر مع الأجهزة، فإن لواء القدس مع الوقت، وزيادة الاعتماد عليه عسكرياً، باتت علاقته الأساسية مباشرةً بأجهزة الأمن، وبالراعي الإيراني، والميليشيات الشيعيّة.

ويضمُّ لواء القدس لاجئين فلسطينيين من مخيمي "النيرب" وحندرات (صاروا أقليةً مع الوقت في اللواء)، ومقاتلين من مدينة حلب وريفها الغربي والشمالي، وكتيبة الشبح الأسود والقمصان السود. وكان اللواء بداية قد اتّخذ مخيم النيرب مقراً رئيساً له. وروى لنا شاهدٌ من المخيم عن وجود الكثير من العناصر الشيعية من العراقيين والإيرانيين واللبنانيين في مقرات اللواء في مخيم النيرب، دون أن يعرف بدقةٍ إن كان ذلك تعاوناً أو أنهم صاروا تابعين للواء، وما استطعنا تبيّنه بشكلٍ واضحٍ عبر شهود، ووسائل إعلام، هو وجود مكتب تطوّعٍ أنشأه "لواء أبي الفضل العباس" في المخيم بالتعاون مع "لواء القدس". وحسب أحد شهودنا فإنه من الملاحظ الحجم الكبير لعضوية السوريين الأرمن في اللواء.

ويتكون اللواء من ثلاث كتائب؛ وشارك في معاركَ متعددةٍ في حلب، منها تلك التي جرت في حي صلاح الدين. وللواء تواجدٌ في محيط مخيم النيرب، وقرب مطار النيرب العسكريّ والمدنيّ، وقرى العزيزة، والشيخ لطفي، وحيلان، وغرب سجن حلب المركزي، ومحيط مخيم حندرات، وفي محيط مبنى المخابرات الجويّة، وجامع الرسول الأعظم، وفي جبهة الراشدين غرب حلب.

ومع تراجع حضور "لواء أبي الفضل العباس"، وإغلاق مكاتبه المنتشرة في مشروع 3000 في حي الحمدانية وحي صلاح الدين وحي المرديان ومخيم النيرب والمدينة الصناعية[166]، ازداد دور لواء القدس، وباشر في حملاتٍ إعلاميّةٍ لدعوة الشبان في حلب للتطوّع في صفوفه، حسب شهاداتٍ متقاطعةٍ مع ما ورد في وسائل إعلام[167].

166- لواء "أبو الفضل العباس" العراقي يتخلى عن "الأسد" وينسحب من حلب، موقع الدرر الشامية، مصدر سبق ذكره

167- لواء "القدس" الفلسطيني يجند شباب حلب للقتال بجانب النظام، السورية نت، https://goo.gl/LpDKyH

ب-"اللجان الشعبيّة المسلحة" التابعة للجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين – القيادة العامة

في ظلّ إنفاقٍ ماليٍّ وتجهيزٍ تسليحيٍّ خفيف وصل تعداد اللجان داخل اليرموك ما يقرب من 2500 عنصرٍ ، بعد قصف النظام السوريّ بطيران "الميغ" جامع عبد القادر الحسيني في 16 ديسمبر 2012، ودخول "لواء الحجر الأسود" المخيم، انهارت لجان جبريل وانسحبت بقاياها من المخيم. وقامت الأجهزة الأمنية بإعادة بناء ذاتها خارج المخيم، بحيث صارت جزءاً عضوياً من تنظيم القيادة العامة، وأصبحت أحد أبرز التشكيلات العسكرية الفلسطينية التي تساهم في حصار مخيم اليرموك من الجهة الشمالية وتسيطر على بعض الأبنية في مدخل المخيم.



عنصر ميليشيا فصائلية يعتدي بالضرب على اللاجئين الفلسطينيين في مخيم اليرموك

ت-تنظيم فتح الانتفاضة

يتواجد التنظيم على مدخل اليرموك، ونقدر أعداد أفراده ببضع مئات، وقد استولى مؤخراً على المربع الواصل من خلف مركز حلوة زيدان حتى محيط جامع الرجولة شمال مخيم اليرموك خلال أحداث دخول داعش إلى المخيم، حيث تمكن من السيطرة على هذه المنطقة مع انشغال المجموعات داخل المخيم بقتال داعش. من المؤكد أن تمويل التنظيم الجديد الذي مكّنه من استعادة بناه نسبياً مقارنة بالسابق مرتبطٌ مباشرة بتطور الأحداث في سورية، ومن ثمة مرتبطٌ بالتمويل الإيرانيِّ للجماعات التي تقاتل لصالح النظام داخل سورية. والجدير بالذكر أن التنظيم يسيطر بالاشتراك مع القيادة العامة على مخيم الحسينية ويمنع أهالي المخيم من العودة إليه رغم استعادة النظام له من أيدي المعارضة منذ قرابة السنتين.

إيران تبني قاعدةً شعبيّةً موالية

تسعى إيران إلى بناء قاعدةٍ شعبيّةٍ على أساس سياسيٍّ مصلحيٍّ، دون إهمالها، ما استطاعت في ظلّ الوضع الراهن وأولوياتها فيه، العمل الدعويّ الدينيّ. وهذا ما ينسجم مع كلّ المعلومات التي

أوردناها في الفقرة السابقة، فإيران تدرك أنها لا تملك حليفاً كاملاً (دينياً) على المستوى القاعدي، لذا "تؤسس نفوذها عن طريق الرأس السياسيّ، ولاسيّما أن العلويين لم يُبدوا أي تفاعلٍ **عقائديٍّ** معها إلى الآن"[168].

الاستيطان هو من أشكال بناء قاعدةٍ شعبيةٍ لإيران، ويبدو أنه الأكثر جدية، ولدينا الكثير من الوقائع التي تدلُّ على تغييرٍ ديموغرافيٍّ بشكلٍ كبير.

ففي الريف الحمصي الجنوبي الغربي، غرب نهر العاصي إلى حدود لبنان، حيث تقع مدينة القصير وغيرها من القرى الشيعيّة والسنيّة، تذكر بعض التقارير أن حزب الله بقيادة المدعو "أبي تراب" والعقيد يوشع من جيش النظام، قاموا بهدم المساجد السنيّة مبقين على ثلاث حسينيّات، وقاموا بهدم وتدمير وسرقة البيوت السنيّة في أكثر من 75 قريةً تقع في هذه المنطقة، بحالة تغيير ديموغرافيّ كبير، إضافة إلى التنافس بينهم على الاستيطان في بيوتٍ تمَّ تهجير أهلها في هذه المنطقة، التي تمَّ تسميتها –حسب ناشطين– بالدولة الشيعيّة.

وأيضاً قام حزب الله بوضع سواترَ ترابيّةٍ كبيرةٍ على ضفة العاصي لمنع السكان من الوصول إلى منطقة غرب العاصي في هذه "الدويلة". ومن القرى التي تمَّ تدميرها بشكلٍ كامل:

النهرية والصفصافة والأذنية والموح وأبو حوري، إضافة إلى السيطرة على مزارع أحمد عامر، وهو سوريٌّ من القومية التركمانية، كان يملك آلاف الهيكتارات في المنطقة، بحجة أنه استوطن فيها وأخذها من ملاكها الإقطاعيّين[169]، وهذه القرى جميعها تقع في الريف الحمصي.

وكذلك تمَّ منع السكان في القصير من العودة إلى مناطقهم بحجة أنها منطقةٌ عسكريّةٌ، وإنذار من بقي بضرورة المغادرة، لأن هذه الأرض، لا تعود إليهم، بل هم مستوطنون كانوا يعملون في مناطق إقطاعية لآل سويدان[170].

من مصلحة إيران وحزب الله السيطرة على الخطِّ الممتدِّ من دمشق مروراً بالقلمون وريف حمص الغربي وحمص إلى الساحل، لتأمين تواصلٍ جغرافيٍّ بين مناطق سيطرة النظام، وتوفير منطقةٍ

168- إيران بلا حاضنة في سوريا ولعبة داعش انتهت، علي أمين، الجنوبية، 2015/5/8 . http://cutt.us/BmGcC
169- المرجع السابق ذاته.
170- استثمار إيران في سوريا بمعزل عن مصير الأسد، ثائر غندور، العربي الجديد، 2015/2/4 http://cutt.us/8TgM

داعمةٍ لحزب الله، ولاسيما أن هذه المنطقة لا تبعد كثيراً عن لبنان، وتنفتح إلى عمق حزب الله الجغرافي، وتشكل خاصرته[171].

وتشير التقارير إلى أن خطط إعادة الإعمار كانت معدة في وقت سابق على الثورة، وكانت تتم تحت غطاء تنظيم العشوائيات، مثل تنظيم منطقة المزة لجعلها منطقة نفوذٍ إيرانيٍّ شبيهة بالضاحية الجنوبية في بيروت، وما يؤكد الطابع السياسيّ لعملية إعادة الإعمار هذه، أنها لا تقترب من العشوائيات التي يقطنها الموالون مثل حي المزة 86. وجاءت الثورة لتسرع ذلك[172].

إضافة إلى الريف الغربي الحمصي، يتمُّ التغيير الديموغرافيّ والاستيطان في قلب مدينة حمص، والحدث الأبرز والأشهر، كان حرق السجل العقاريّ في مدينة حمص، في صيف 2013، ووجهت الاتهامات للنظام الذي أقدم على حرق السجل العقاريّ قصداً، بحيث كانت الطوابق تحترق واحداً فواحداً، حسب اللجنة السورية لحقوق الإنسان، التي نقلت شهادة الباحث سعيد نظلة[59]، حيث لم يبقَ هناك وثائقُ رسميّةٌ تبيّن ملكية البيوت، حيث لا توجد بياناتٌ إلكترونيّة. ويرافق ذلك ترهيبٌ للسكان بحيث لا يعودون إلى أبنتيهم، وتتمُّ عملية توطين لعناصر شيعيّة عراقيّة ولبنانيّة وسوريّة[173].

والأمر ذاته حدث في دمشق في مرسوم 2012 لتنظيم مناطق الدحاديل وبساتين الرازي وجزء من بساتين داريا واللوان ونهر عيشة وكفرسوسة، في خطوةٍ فسّرها ناشطون بالرغبة في توطين سكان نبل والزهراء (الشيعيتين شمال حلب) فيها[174]، وأيضاً تمَّ تمليك الشيعة لعقاراتٍ في حي السويقة. وفي النصف الأول من عام 2014، جرى نقل ملكية 3267 عقاراً في مناطق المزة والمالكي وشارع بغداد في وسط دمشق، وفي الشاغور والميدان والعمارة في دمشق القديمة[175]. ومن مظاهر عملية تمكين القاعدة الشيعيّة في دمشق، الظهور العلنيّ لأول مرة لمسيرات عاشوراء في قلب دمشق.

171- التطهير الطائفي الصامت، الدور الإيراني في التدمير والتهجير في سوريا. نامه شام، الطبعة الأولى، أيار/مايو 201520152015.

172- التطهير الطائفي الصامت، مصدر سابق.

173 - ما وراء الخبر / الجزيرة/ 17- 4 – 2014 هناك 800 ألف نازح ومهجر من حمص. ويذكر أهالي حمص مشروع "حلم حمص" وهو مشروع يهدف كما يقول المعارضون لتمليك مناطق مركزية من حمص بيد أغنياء من الطائفة العلوية، وهذا المشروع تمتد جذوره إلىفترة السبعينيات حين قام حافظ الأسد بإقامة أبنية للوافدين العلويين.
https://www.youtube.com/watch?v=fnOVrpoSgjc

174- المرجع السابق ذاته.

175- التطهير الطائفي الصامت، مصدر سابق.

عملياً لا توجد لدينا تفاصيلُ دقيقةٌ عن عمليات شراء أراضٍ في دمشق وريفها، من قبل إيرانيّين، لكن هناك العديد من الشهادات التي تذكر ذلك.

أما في حلب، فهناك أنباءٌ تفيد بعمليات شراءٍ لبيوت تركها أهلها، أو اضطروا لبيعها، من قبل شيعة مدينتي نبل والزهراء بشكلٍ أساسيٍّ، إضافة إلى بعض العلويّين القادمين من الساحل السوري، في محاولةٍ لتمكين الشيعة من قلب مدينة حلب القديمة، حيث تسيطر الميليشيا الشيعيّة عليها بشكل أساسي(176). إضافة إلى معلوماتٍ تشير إلى تجنيس شيعةٍ عراقيّين أثبتوا ولاءهم للنظام (وليس للفصيل الذي استجلبهم) وتمَّ توطينهم في ضاحية الأسد، حي الحمدانية في حلب وذلك في أبنية كانت قيد البناء، كما أفادنا "مايو"، إضافة إلى بناء حسينيات في مناطق ملاصقة لجسر الشغور قبل سيطرة جيش الفتح عليه.

والأمر ذاته ينطبق على مدينة مصياف حيث يقوم الإيرانيّون بشراء الأراضي حسب باسل العبد الله.

وتذهب إحدى التحليلات إلى أن إيران قد استطاعت أن تبني قوةً اقتصاديّةً موالية لها، وقوة عسكريّة واضحة، ممّا يجعل أية حكومة ستأتي بعد الأسد، مضطرةً للتعامل معها؛ فإيران وميليشياتها استطاعت أن تخلق لنفسها قوةً عسكريّة، وبشريّةً من خلال الاستيطان، واقتصاديّة من خلال الدعم الإيرانيِّ ورهن عقارات الدولة السورية مقابل الديون الإيرانيّة(177)، التي لم تتوقف، وآخرها كان في شهر مايو من العام 2015(178).

ويبدو صغر النظام السوري أمام طهران جلياً حين نلاحظ أنه يفاوض على جثث الـ 13 قتيلاً شيعيّاً في منطقة حلب (قاد التفاوض ضابطٌ من حزب الله) ويوافق على إطلاق سراح معتقلين مدنيّين في المقابل. علماً أن النظام لا يقوم بالمفاوضة على أسرى أحياء غير شيعة من جيشه وعناصره الأمنية! وهذه المفارقة خطيرةٌ من حيث إنها تدلّ بقوة على:

1. العلاقة التي تنظمها إيران مع أفرادها بحيث إن جثامينهم معتبرة.

176- مقابلة مع مصطفى محمد، ويمكن أن نجد عدة تقارير إعلامية عن هذه القضية مثل: هل بدأ الاستيطان الإيراني في حلب؟ البيوت الفارغة يسكنها المرتزقة وعائلاتهم، كلنا شركاء، 2014/12/23 http://all4syria.info/Archive/185084

177 - مباني الدولة مقابل الديون، جريدة القبس الكويتية، 2015/5/1 http://cutt.us/j55Y

178 إيران تمنح سوريا قرضاً جديداً للإبقاء على ماكينة حرب الأسد، ترجمة فواز السعيد، السوري الجديد، 2015/5/23 http://cutt.us/17Y1

2. تبنّي النظام للفوقيّة الشيعية حتى إن أدت إلى استرخاص جنوده.

وهذا سيجد انعكاساته على القاعدة الشعبيّة، باتجاهين نقيضين: المسارعة للانتساب للميليشيا الشيعيّة أو تزايد حالة النفور منها، في أوساط المؤيدين للنظام، وفي كلا الحالتين زعزعة النظام، وزيادة الصراع بينه وبين قاعدته وداخل قاعدته الشعبية ذاتها، بين قلقٍ من الميليشيا الشيعيّة ومتحمّسٍ لها.

الفصل الخامس الختامي: خلاصات وتحديات

أ- خلاصات

تدخّل النظام الإيرانيُّ في سوريا تحت دفع محاولته الاستثمار في الاضطرابات للسيطرة وتحويل العلاقة مع النظام السوري إلى الوصاية، ومن جهة أخرى دفاعاً عن نفوذه في سوريا، وخوفاً من تداعيات سقوطه وخسارتها أحدَ أهمِّ حلفائها، ومن ارتداداته الداخلية وهي لم تبرأ بعد من الثورة الخضراء التي قمعتها داخلياً.

وما إن بدأ النظام السوريّ بالتراجع عسكريّاً حتى مدّته إيران بكلِّ ما استطاعت من عوامل القوة. بداية كان ذلك عبر مساهمتها في إنشاء "قوات الدفاع الوطنيّ" من عناصر "الشبيحة" الذين كانوا يعملون مع الأجهزة الأمنية في قمع المظاهرات، ومن متطوعين تمّ تحريضهم وإغراؤهم بالمال والامتيازات. وكميليشيا مساندة قامت إيران بدفع بعض الفصائل الفلسطينية لإنشاء ميليشيا خاصّة بها، ودعمت حزب الاتحاد الديمقراطي الكرديّ (النسخة السورية من حزب العمال الكردستاني) لتشكيل ميليشيا خاصّة به.

وما إن تبيّن أن هذه الميليشيا غير كافيةٍ للدفاع عن النظام، حتى سعت إيران لدفع الميليشيا الشيعية في كلٍّ من العراق ولبنان للقتال في سوريا لتعويض المقاتلين.

ولتستطيع إيران إقناع المنضوين في هذه الميليشيا أن يقاتلوا استفزّت الصراع الطائفيّ قدر استطاعتها، وهو ما تكامل مع مساعي النظام السوري منذ بداية الثورة لحرفها إلى صراعٍ طائفيٍّ، ومع مساعي قوى طائفيّة معارضة للنظام السوريّ تجد في الصراع الطائفيِّ العامل الأساسيَّ لضمان تصاعد قوتها، الأمر الذي أدى إلى انقسامٍ طائفيٍّ عميقٍ في المجتمع السوري، تكامل مع الصراع الإقليمي فتعزز الفرز الطائفيّ شيعي–سني.

وقد مرَّ وجود الميليشيا الشيعيّة المرتبطة بولاية الفقيه في سوريا بثلاث مراحل متمايزة، بينما تظهر مؤشراتٌ لمرحلةٍ رابعة يمكن توقع احتمالاتها. في المرحلة الأولى كان وجوداً محدوداً، يقتصر على تقديم الخبرة والمشورة، فالجيش وأجهزة الأمن كانت لاتزال بأفضل أحوالها. في المرحلة الثانية بدا وكأن كفة الصراع قد مالت لمصلحة المعارضة المسلحة، التي أصبحت تسيطر على مساحاتٍ واسعة، ما أدى لدخول واسعٍ وعلنيٍّ للميليشيا الشيعية لمواجهتها، وهو ما

تُوّج بإعلان قادةٍ من إيران والأمين العام لحزب الله بأنهم أنقذوا النظام. أما المرحلة الثالثة، التي نعيش، فأصبحت فيها الميليشيات الشيعيّة السبب العسكريّ الرئيسي لبقاء حكم الأسد وعدم انهياره. ويمكن تقسيم هذه المرحلة إلى طورين: الأول طور انتصاراتٍ وتمدّدٍ؛ والثاني طور تراجع نتيجة انسحاب ميليشيات عراقيّة للمشاركة في مواجهة تمدّد " داعش"، ونتيجة توافق الدول الداعمة للمعارضة السورية وتوحيد جهود فصائل المعارضة الإسلامية على الأرض.

ونستنتج أن وجود الميليشيا الشيعية التابعة لولاية الفقيه، أدّى دوراً محورياً في تدعيم التطرّف عند الطرف الثاني في الصراع، وغذى قوىً طائفيّةً كانت بأمسِّ الحاجة لمزيد من مصادر الشرعية. وهو ما يمكن اعتباره استمراريةً لأثر إستراتيجية سلطة الأسد التي حددت التجييش الطائفيّ كمخرجٍ لها في مواجهة الثورة الشعبيّة منذ بدايتها. وهو ما يشرح الآلية الداخلية للصراع الطائفي، حيث يولّد كلّ طرفٍ فيه شرعية للآخر بالدم والنار.

وفي خضمِّ التحوّل لحربٍ أهليّةٍ، دخلت منذ فترة في طورها الطائفي، نميل للاعتقاد بأن الرأي بالحاجة للحامي الخارجي سيلقى قبولاً أكبرَ لدى مزيدٍ من الأفراد من الأقليات إن لم يحصل تغير نوعيٌّ في طرف المعارضة. وإذا أضفنا لهذا العامل زيادة سطوة إيران على سلطة الأسد المضعفة باطّراد، وتراجع الأخيرة التي يمكن أن تنحصر في جغرافيا الوجود العلوي، يمكننا استشراف ملامح المرحلة الرابعة وأبرزها: 1) هيمنة الإرادة الإيرانية المتحوّلة من الحماية إلى الوصاية؛ واستمرار تحوّل سلطة الأسد إلى ميليشيا طائفيّةٍ طامحة لإنشاء دولة ولكنها قد تكون دولة علوية؛ 2) زيادة تبلور الحالة الطائفية، وهو ما تشجعه، وتدعمه، وتدعو إليه، إيران، وتحاول استثماره عبر طرح معادلة "تحالف الأقليات"، وطرح نفسها "حامياً الأقليات"؛ 3) دخول سوريا في عصر الحمايات الإقليمية والدولية لمكوناتها الاجتماعية.

ونتيجة لذلك نرجح تعقد ردة الفعل الشعبية العلوية، فنتوقع أنه من جهة ستتراجع مقاومة قطاعات منهم للتشيّع باطراد مع إغلاق كلّ الاحتمالات الأخرى للخروج من المأزق الذي زجتهم فيه سلطة الأسد، بينما من جهة أخرى ستجد قطاعاتٌ أخرى في ذلك تهديداً لهويتها ونمط حياتها، ممّا سيولّد صراعاً اجتماعيّاً من الصعب التنبؤ بمداه، لأنه سيكون صراعاً مع سلطة الأسد وداخلها.

ونجد أن الغائب الأكبر عن المشهد هو المعارضة الوطنيّة الديمقراطيّة، وهو ما نتج عن فشل طموحات الثورة المدنية لتشكيلها تحت ضربات النظام المنهار من جهة، والميلشيات الشيعية، والإسلام السنّي الراديكالي، والفوضى الناتجة عن سلوك النظام التدميريّ الاستئصالي. كما نجد عجز القوى الديمقراطية الأخرى، الضعيفة أصلاً، على التفاعل مع الكارثة التي يعيشها الناس.

ب- تحديات

مع غياب التيار الوطنيّ الديمقراطيّ غابت الوطنية السورية الديمقراطيّة، حتى ببعدها الفكري، ساد الشحن الطائفيّ. فمنذ اللحظة الأولى للبحث لاحظنا كيف يزول الفارق بين النظام الإيراني والميليشيا الشيعية من جهة وعموم الشيعة من جهة أخرى. إن إجمال الشيعة، وإجمال العلويين، في خانة العدو، وعدم التمييز بين ولاية الفقيه كإيديولوجيا حكم تقصر التشيّع لمصلحة الحكم الإيراني وبين الشيعة بالمجمل، وبين سلطة استبداد أنتجت دوراً وظيفيّاً لقطاعٍ من العلويّين وبين عموم العلويّين، يغيّب الحقيقة ويفيد الطائفية ومن يستثمر فيها. ونتيجة لهذا الغياب يواجه السوريون التحديات عبر البنى الحمائية المتوفرة لهم، والتي غالباً ما تكون طائفيةً، إن كانت تلك التي تدعمها سلطة الأسد وإيران، أوتلك التي تدعمها المعارضة الطائفيّة التي تواجههما، ما يطبق الوضع الطائفي.

بما خصّ الإستراتيجية الإيرانية في سوريا نجد أن بين النوايا وبين تحقيقها (سواء عبر الميليشيات أو عبر التشييع) موانع منها:

1- يؤدي الشحن الطائفيّ المرتفع الذي تستخدمه إيران ووكلاؤها إلى إضعاف قدرتها على الاستقطاب خارج إطار الشيعة، وإفراغ الرصيد المقاوم لها ولحزب الله.

2- الاستنزاف الكبير الذي تتعرض له إيران نتيجة خوضها حروباً بالوكالة، عبر الميليشيات الشيعية، في ثلاث دول (العراق، سوريا، اليمن)، مرشحة أن تصبح أربع في حال انفجر الوضع في لبنان. في الوقت الذي مازال الحصار الدوليّ مضروباً حولها، ومهددة في حال الوصول إلى اتفاقٍ نوويٍّ بأن تشهد صراعاً داخلياً بين المتشددين والإصلاحيين داخل نظامها السياسيّ.

3- المشكلات التي تتخلل الميليشيات الشيعيّة بسبب تفاوت الخلفيات الإثنية والعقائدية. الرابط الأساس بين هذه الميليشيا هو الولاء للمركز والذي يبتعد عن بعده العقائدي تحت ضغط الحاجات السياسية. وإذا أضفنا لهذا ما تبيّناه من مقاومةٍ ضمن الوجود الشيعيّ لولاية الفقيه،

وانحياز تكويناتٍ شيعيّةٍ لمصالحها الوطنيّة على حساب الرابطة العقائدية المصنعة لخدمة القومية الفارسية، نستشرف عناصر صراع متزايد سيكون محورياً حين تتراجع حدة الصراع الطائفيّ التي تجبر قطاعاً واسعاً منها على التوحد آنياً. وهو ما يفسّر حرص إيران ووكلائها على الشحن الطائفي.

4- مشكلاتٌ ناتجةٌ عن التعديلات الحاصلة على النظام السوريّ وجمهوره، فبينما يخسر النظام عسكرياً ويتحوّل سياسياً إلى قوة مرتهنة ذات بعدٍ طائفيٍّ صريح، يزداد لدى جمهوره الشعور بحجم الخسارة، ما يفتح الباب لانفصال قطاعاتٍ من القاعدة باتجاه قياداتٍ جديدة سيكون أغلبها محليّاً ويكون بعضها انشقاقاً عن القيادة القديمة، وهو ما سيتّسع بمقدار عجز القمة عن إعادة التكوّن بما يناسب التغيرات ومتطلباتها.

5- ميل الأقليات للبحث عن آليات حماية لا تربطها بصراعٍ دمويٍّ شيعيٍّ – سنيٍّ

إلا أن النظام الإيرانيّ يظهر حيويةً عالية، وقدرة على التأقلم مع المستجدات وتغيير خطابه وتحالفاته، بما يتناسب معها. وفي حال بقاء المعارضة السوريّة عاجزةً عن تقديم رؤيةٍ وطنيّةٍ سورية، عملية وجادة، وإطارٍ وطنيّ جامع، يجد فيهما العلويّون مصالحهم بالتوازي مع مصالح المكونات الأخرى، وتحت ضغط شعورهم بالتهديد من طرف المعارضة الإسلامية، فإن التماهي مع النظام الذي أظهره أغلبهم من بداية الثورة قد يصل إلى حدٍّ يقبل فيه غالبيتهم الوصاية الخارجية أو حتى الانقسام.

وسيؤدي عجز المعارضة عن التشكّل الوطنيّ إلى ضياع فرصة الاستفادة الشاملة من فترات تراجع قدرة قطاعاتٍ من الميليشيات الشيعيّة، المرتبط بأدوارها في ساحات أخرى مثل العراق واليمن حالياً ولبنان كاحتمالٍ مستقبليّ. وإن أصبح الميل العام باتجاه المزيد من الانغلاق الطائفيّ والعجز الوطني، فنحن مقبلون على طورٍ جديدٍ من الحرب الطائفيّة التي لا تنتهي إلا بالتقسيم أو بالوصاية الخارجية المباشرة، أو بكليهما معاً.

أما إذا تمَّ طرحُ حلٍّ وطنيٍّ، عبر نبذ الجهات الطائفية وتشكيل إطارٍ وطنيٍّ جامع يؤسس لعملية تكوّن وطنيٍّ فعليٍّ، يجد فيه السوري أنه متساوٍ مع أخيه بصرف النظر عن المذهب والدين، فإن ذلك سيكون عاملاً حاسماً في زعزعة أركان النظام وضرب هيمنة إيران والميليشيا الشيعيّة التابعة لها.

ملحق (1) ولاية الفقيه

وجدنا أنه من الضروري تعريف "مذهب ولاية الفقيه"، طالما هي عصبٌ رئيسيٌّ في بحثنا، إلا أن كلّ تعريفٍ يحوي اختزالاً وهو ما ينطبق بشدة على محاولة تعريف مذهبٍ فكريٍّ سياسيٍّ يدير دولة وعلاقتها باتّباع مذهبٍ عبر العالم، علاقة تكون أحياناً صراعية[179]. مع ذلك، وتلبية لحاجة الدراسة، سوف نغامر بتقديم تعريف لمذهب ولاية الفقيه بقدر ما نتمكن من الدقة.

مذهب ولاية الفقيه: مذهبٌ فكريٌّ شيعيٌّ أنتجه –عبر إعادة إحياءٍ، وإضافة[180]– المرجع الشيعيّ روح الله بن مصطفى بن أحمد الموسوي الخميني[181](1902– 1989) الذي كان له دورٌ رئيسيٌّ في الثورة الإيرانية، إلا أنه قاد الانقلاب على التيارات السياسيّة الأخرى المشاركة في الثورة بعد سقوط الشاه[182]، وسلّم الحكم لرجال الدين ("الحكومة الإسلامية")[183]؛ بعد أن كان أغلبية الشيعة يعتقدون بأن إقامة الدولة الإسلامية مرهونةٌ بإمامهم الثاني عشر "المهدي المنتظر"[184] الذي يعتقدون أنه سيعود ليقيم دولته. ويعتمد مذهب ولاية الفقيه على أنه يمكن للفقيه أن ينوب عن "الإمام الغائب" في مهمة الحكم إلى حين عودته، وهو ما يعني ولاية عامّة ومطلقة للفقهاء[185].

تاريخياً قام الحكم الصفوي بجعل المذهب الشيعيّ المذهب الرسميّ عام1501، في سياق الصراع مع الدولة العثمانية التي استحصلت بالغلبة على وراثة الخلافة السنية. ثم قام رجل الدين المحقق علي الكركي بالأخذ بولاية الفقيه عن تياراتٍ إسلامية أخرى (المعتزلة، والشيعة الزيدية)،

179- السيّد علي الأمين: ولاية الفقيه شأن إيراني وحزب الله وأمل أساءا للشيعة العرب، مجلة "المجلة"،

180- يمكن العودة لتطورات هذه النظرية عبر التاريخ بالاطلاع على البحث: نظرية ولاية الفقيه وتداعياتها في الفكر السياسي الإيراني المعاصر، شفيق شقير، المعرفة، الجزيرة نت، http://goo.gl/6daiat

181- "ويكبيديا" الموسوعة الحرة، http://goo.gl/ppsxgd

182- يمكن العودة إلى اللقاء مع د. أبو الحسن بني صدر(1933)، الرئيس الإيراني الأول بعد الثورة (1980-1981) ، مع جريدة الشرق الأوسط، http://goo.gl/AQz3mO

183- " "لو قام الشخص الحائز لهاتين الخصلتين (العلم بالقانون والعدالة) بتأسيس الحكومة، تثبت له الولاية نفسها التي كانت ثابتة للرسول الأكرم (ص) ويجب على جميع الناس إطاعته. فتوهم أن صلاحيات النبي (ص) في الحكم كانت أكثر من صلاحيات أمير المؤمنين (ع) وصلاحيات أمير المؤمنين (ع) أكثر من صلاحيات الفقيه, هو توهم خاطئ وباطل". الحكومة الإسلامية، روح الله بن مصطفى بن أحمد الموسوي الخميني ، كتاب إلكتروني، موقع مكتبة النرجس، http://www.narjes-library.com/2012/01/blog-post_638.html

184- يعتقد الشيعة الاثنا عشرية بـ "المهدي المنتظر"، وهو عندهم الإمام محمد بن الحسن المولود عام 255هـ، وأنه حي منذ ذاك الحين لكنه مختفٍ عن الأنظار ولن يظهر إلا في "آخر الزمان" ليعلن دولته.

185- "فـي زمن غيبة الإمام المهدي (عجّل الله تعالى فرجه) تكون ولاية الأمر وإمامة الأمة فـي الجمهورية الإسلامية الإيرانية بيد الفقيه العادل، المتقي، البصير بأمور العصر، الشجاع القادر على الإدارة والتدبير وذلك وفقاً للمادة 107." الدستور الإيراني، موقع وزارة الشؤون الخارجية الجمهورية الإسلامية الإيرانية، http://www.ar.mfa.ir/index.aspx?fkeyid=&siteid=2&pageid=142

ليبرر العلاقة بين الفقيه الشيعي الاثني عشري ورجل السلطة (مغتصبها حسب الأمامية)، استجابة لدعوة الشاه طهماسب الصفوي (سنة 939 هـ – 1533 م)الذي كان بأمسِّ الحاجة للسلطة الدينية لمواجهة اضطراباتٍ في دولته[186].

إلا أن الخميني طوّر ولاية الفقيه بحيث يكون الفقيه والحاكم بآن واحدٍ، وليورث إيران هذه المعادلة، وليطرحها مذهباً لكلّ الشيعة في العالم. وقد قام الخميني بخطوته العملية لتطبيق نظريته عبر تمليك قرار وشرعية الدولة إلى كبار رجال الدين عبر عمليةٍ تتمركز حول شخص الولي الفقيه[187]، وليس دون الكثير من المقاومة بما فيها من مرجعيات دينية[188]. ثم قاد الصراع في الوسط الشيعيّ خارج إيران بغية تحويل الشيعة إلى مذهب ولاية الفقيه، خدمةً لنفوذ دولته، وبالتالي جعل المعتقدين بولاية الفقيه من الشيعة في بلدان أخرى أتباعاً لحاكم دولة أجنبية[189]، مستفيداً من أيّ عاملٍ من الممكن أن يستفيد منه، من الأوضاع المتردية في هذه البلدان، والقهر الطائفي (الموجود في الحاضر، أو ذاك الموجود في الذاكرة الجمعية)، وصولاً إلى استخدام الصراع مع إسرائيل لخدمته، فـ" الحكومة الإيرانية قائمةٌ على أساس وجود عدوٍّ دائم، فيقضون بحجة العدو على أي معارضة قد تنشأ، وعداؤهم لإسرائيل فيه مصلحةٌ لإيران، وهي ليست عداوة مبدئية"[190].

وما بين بناء الجمهورية القومية الدينية[191]، وإعادة بناء نفوذها في الخارج المتمحور حول استتباع الشيعة في دول أخرى، تظهر أحد أبرز تناقضاته الداخلية، ومضاره الخارجية. أما الأولى فقد حاول تيار الخميني على المستوى الداخلي تحقيق غايتين متناقضتين: قبض كبار

186- شفيق شقير، نظرية ولاية الفقيه وتداعياتها في الفكر السياسي الإيراني المعاصر، باب أبرز المعترضين على ولاية الفقيه، المعرفة، الجزيرة نت، مصدر سبق ذكره.

187- "وظائف القائد وصلاحياته: 1- تعيين السياسات العامة لنظام الجمهورية الإسلامية الإيرانية بعد التشاور مع مجمع تشخيص مصلحة النظام.". البند الأول، المادة 101، الدستور الإيراني، موقع وزارة الشؤون الخارجية الجمهورية الإسلامية الإيرانية، مرجع سبق ذكره.

188- شفيق شقير، نظرية ولاية الفقيه وتداعياتها في الفكر السياسي الإيراني المعاصر، باب أبرز المعترضين على ولاية الفقيه، المعرفة، الجزيرة نت، مصدر سبق ذكره.

189- ينص البيان التأسيسي لـ"حزب الله" في 16 شباط 1985، حرفياً: "نحن أبناء أمة حزب الله التي نصر الله طليعتها في إيران وأسست من جديد نواة دولة الإسلام المركزية في العالم، نلتزم أوامر قيادة واحدة حكيمة تتمثل بالولي الفقيه الجامع للشرائط. كل واحد منا يتولى مهمته في المعركة وفقاً لتكليفه الشرعي في إطار العمل بولاية الفقيه القائد. نحن في لبنان لا نعتبر أنفسنا منفصلين عن الثورة في إيران"، انظر ميثاق الحزب في كتاب: حزب الله رؤية مغايرة 226 وما بعدها.

190- حوار مع المفكر العراقي أحمد القبانجي، موقع قنطرة، http://goo.gl/JFzXYq

191- يمكن ملاحظة الطبيعة المتناقضة للجمهورية الإيرانية في نص الدستور، مثل قوله في المادة السادسة والعشرين: "الأحزاب، والجمعيات، والهيئات السياسية، والاتحادات المهنية، والهيئات الإسلامية، والأقليات الدينية المعترف بها، تتمتع بالحرية بشرط ألا تناقض أسس الاستقلال، والحرية، والوحدة الوطنية، والقيم الإسلامية، وأساس الجمهورية الإسلامية، كما أنه لا يمكن منع أي شخص من الاشتراك فيها، أو إجباره على الاشتراك في أحدها.". المقتطف من الدستور الإيراني، موقع وزارة الشؤون الخارجية الجمهورية الإسلامية الإيرانية، مصدر سبق ذكره.

رجال الدين على الدولة وقرارها وشرعيتها من جهة، وإشراك أوسع إطار من الإيرانيين في إدارة جوانب ليست بالقليلة من أمورهم اليومية عبر المؤسسات الجمهورية من جهة أخرى[192]، فصنع الاستبداد لضبط التناقض لمصلحة الطرف الأول[193]. بينما كان لعملية استتباع قطاعات من الشيعة في بعض الدول أثره السلبيّ، وأحياناً الكارثيّ، على سيادة دولهم، وفي حالة العراق على إمكانية بناء الدولة، ودائماً على اجتماعهم مع بقية مواطنيهم[194]. فهذا الاستتباع يجعل القطاعات الاجتماعية المنضبطة بولاية الفقيه تخدم مصالح إيران في دولها وفي دول أخرى؛ عسكرياً كما يحصل مع الميليشيات الشيعيّة التابعة لإيران التي تقاتل في سوريا والعراق واليمن ولبنان، أو اقتصادياً ودعوياً وسياسياً كما يحصل في بلدان أخرى مثل تلك التي لهم وجودٌ مؤثرٌ فيها كما هي حال شيعة لبنانيين في بلدان إفريقية[195]. وهو ما له أثره السلبيّ، وأحياناً الكارثيّ، على الشيعة في هذه البلدان.

إلا أنه حتى علاقة الاستتباع قد تمرُّ بعملية تبادل المنافع، وإن كانت دائماً تميل إلى مصلحة الطرف المُستتبع، تحديداً تلك التي فيها عامل الرضى جنب عامل الإجبار. وهو ما ينطبق على موضوعنا، حيث استفادت إيران من مظلومية الشيعة العرب، بينما كان يهيمن على أوساطهم قبلها التياران القومي العربي واليساري.

أخيراً، يُعرف نعيم قاسم، نائب الأمين العام لحزب الله، الولي الفقيه بأنه "الذي يكون عالماً عادلاً ومجتهداً يستطيع استنباط الأحكام الشرعية من الشريعة المقدسة، وهو يتصدى لشؤون المسلمين بحيث يدير قضاياهم العامة التي ترتبط بشؤون الأمة والحكومة بشكل عام، أي بمعنى آخر الفقيه هو الذي يتحمل المسؤولية في الإدارة السياسية والمالية وإدارة الشؤون العامة للدولة والأمة معاً. هو المتصدّي لأمور الحكومة والإدارة ومتابعة الشأن السياسيّ والاجتماعيّ. ولاية الفقيه هي المسؤولية التي يتصدى لها أحد الفقهاء أي بمعنى آخر هو حاكم على الأمة ليس فقط على

192- "يجب أن تدار شؤون البلاد في جمهورية إيران الإسلامية بالاعتماد على رأي الأمة الذي يتجلى بانتخاب رئيس الجمهورية، وأعضاء مجلس الشورى الإسلامي وأعضاء سائر مجالس الشورى ونظائرها، أو عن طريق الاستفتاء العام في الحالات التي نص عليها الدستور." الدستور الإيراني، موقع وزارة الشؤون الخارجية الجمهورية الإسلامية الإيرانية، مصدر سبق ذكره.

193- حسم الخميني الطابع الاستبدادي، ونجد الحسم الذي بنى –وتياره- عليه النظام السياسي في قوله برسالة للخامنئي حين كان الأخير رئيساً للجمهورية :" وتستطيع الحكومة (ولاية الفقيه) أن تلغي من طرف واحد الاتفاقات الشرعية التي تعقدها مع الشعب إذا رأتها مخالفة لمصالح البلد والإسلام". نظرية ولاية الفقيه وتداعياتها في الفكر السياسي الإيراني المعاصر، شفيق شقير، الجزيرة نت، المعرفة، مرجع سبق ذكره.

194 - المرجع الديني السيّد علي الأمين، السيّد علي الأمين: ولاية الفقيه شأن إيراني وحزب الله وأمل أساءا للشيعة العرب، لقاء في "المجلة" اللندنية، http://goo.gl/6nDhjf

195- الهيبة الشيخ سيداتي، كيف تلعب إيران بأوراقها في غرب إفريقيا؟، مركز الجزيرة للدراسات، http://studies.aljazeera.net/reports/2015/05/201553659458124.htm

الدولة. وعلى جميع المراجع عدم الخروج عن طاعة الولي الفقيه الواحد وأوامره ملزمة لأن الأمر يرتبط بالإدارة العامة والسياسة العامة وحكومة المسلمين والقضايا الكبرى التي تتابع. وهذه لا يمكن أن تخضع لآراءٍ متعددةٍ بل يجب أن يكون هناك مركزية في هذا الأمر."[196].

196- "حوار مع سماحة العلامة الشيخ نعيم قاسم (حفظة الله) نائب الأمين العام لحزب الله لبنان"، منتدى شبكة الدفاع عن السنة، http://goo.gl/DhMXQV



دراسات ميدانيّة في أثر الصراع في سوريا على المجتمع

سوريا: عصر أمراء الحرب وعودة الحمايات والوصايات

(1)

الميليشيا الشيعيّة

فريق عمل

تعريف بالدراسة

تقوم هذه الدراسة على جمع وتحليل ومقارنة المعطيات التي تتعلّق بوجود ونشاط الميليشيا الشيعيّة في سوريا؛ حيث نقف على حالة هذه الميليشيا، التي بات لها حضورٌ ذو تأثيرٍ كبيرٍ في الشأن السوريّ. لا تقف هذا الدراسة فقط على الدور العسكريِّ لهذه الميليشيا، وإنما تقارب أيضاً، ضمن حدود ما أتيح لنا في ظرف الحرب، أثرها على المجتمع السوري، ونبحث في علاقة هذه الميليشيا بالإستراتيجية الإيرانية، وكيف انعكس وجودها، وسلوكها، على المجتمع السوريِّ، والبحث فيما إذا كانت ستسهم في خلق آليّاتِ عنفٍ ذات ديمومة.

مركز دراسات الجمهوريّة الديمقراطيّة

www.drsc-sy.org